تحتَ مِنبر

الإمام الجواد عليه السلام

٣

الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة
الشؤون الفكرية والثقافية
١٤٣٣ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ

سورة النمل الآية ٩٢

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد المصطفى وعلى آله الطيبين الطاهرين الذين جعلهم الله رحمة للناس أجمعين..

لقد جعل الله تعالى العقل حجةً على الناس لما له من إدراك للأشياء والموجودات، وهو حجة باطنة تحتاج إلى عضدها بحجة ظاهرة، وهم الأنبياء والرسل والأئمة الذين يهدون بأمر الله عز وجل، لذا نجد أن الإمام موسى الكاظم عليه السلام قد أشار إلى هذه الحقيقة قائلا لهشام: «يا هشام إنّ لله على الناس حجتين حجة ظاهرة وحجة باطنة، فأمّا الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة، وأمّا الباطنة فالعقول».

وعليه فإننا محتاجون دائما إلى مَن يرشدنا إلى سبيل الرشاد، لأن الإنسان متعرّض دائما إلى مختلف الابتلاءات التي يواجهها في حياته على المستوى العقائدي والفكري والعبادي وكذلك على المستوى الاجتماعي والاقتصادي وغيرها.. فلم يفُت ذلك على الرسول الأكرم وآله الأطهار صلوات الله عليهم أجمعين حيث أخذوا على عاتقهم تربية الأمة وبنائها بناءً عقائديا وأخلاقيا بما يضمن للمجتمع أن يحُسن التعامل مع الله عز وجل من جهة، ومع الناس كافة من جهة ثانية.

لذا نضع بين أيديكم هذا الإصدار «تحت منبر الإمام الجواد عليه السلام» – القسم الثالث، إكمالا للسلسلة بعد صدور القسمين الأول والثاني، والذي يمكن اعتباره منهجا لنا للسير نحو مدارج الكمال الإنساني وحفاظا على تكريم الله تعالى للإنسان، إذ قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (١).

وامتدادا لهذا التكريم الذي حرص عليه أئمتنا عليهم السلام ومنهم إمامنا الجواد نجد لزاما علينا أن نتمسك بوصاياهم وأحاديثهم الشريفة وأن نترجمها إلى أفعال على سلوكنا.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الذين يسمعون القول فيتّبعون أحسنه إنه سميع مجيب

(١) - الإسراء ٧٠

الحديث الأول

التوحيد المحض

عن الحسين بن سعيد قال: سئل أبو جعفر الثاني عليه السلام: يجوز أن يقال لله: إنه شيء؟ فقال: «نعم يخرجه من الحدّين: حد التعطيل، وحد التشبيه»(١).

بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وانقلاب أحوال المسلمين وضعف أدائهم وجهلهم بما ورد من المشرع جل وعلا في كتابه المجيد وبما أوضحه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في بيانه للكتاب، واختلافهم في سنة نبيهم، وورود الأفكار اليهودية على المسلمين من رجال تظاهروا بالإسلام فأدخلوا في الإسلام ما تنزه عنه وبرء، وبث أفكار النصرانية من خلال البلاط الأموي على المسلمين باعتبارها العقيدة السليمة، وتغييب دور الأئمة عليهم السلام بعد النبي صلى الله عليه وآله، أوجد نمطاً من التفكير لفهم الأحكام والتأصيل لها ثم الاستعانة بالثقافات الأخرى من أجل الوصول إلى الأحكام أو الوصول إلى عقيدة أشار إليها القرآن، هذه الأسباب وغيرها أدت إلى اختلاف المسلمين فوجدت على أثر تلك الاختلافات في الفهم.. الفرق والمذاهب، وتكاثرت الآراء في نفس الفرقة الواحدة، فجمد

(١) الكافي ج١ص٨٢

البعض على ظاهر النصوص وأوّل البعض النصوص على وفق ما يرتأون، وفي ظل هذه الأجواء كان دور الأئمة عليهم السلام -ورغم التغييب والتحجيم- هو مواجهة الانحرافات والشطحات الفكرية، فأرسوا القواعد ودفعوا الشبه وأسسوا المدارس من أجل حفظ الدين وصيانته من التحريف والتشويه، وإيصال الحقيقة إلى طالبيها وتعليم المسلمين وتحصينهم من فساد العقيدة فكان دورهم عليهم السلام العودة بالآراء المختلفة إلى القرآن والسنة الصحيحة، وقد وقف أول أئمة أهل البيت عليهم السلام الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام لصد تلك الانحرافات سواء كانت فقهية أو اعتقادية، ثم الأئمة الواحد تلو الآخر، ومما ابتُلي به المسلمون هي مسألة صفات الله جل وعلا وكيف يوصف وما رافقها من تساؤلات حيّرت المسلمين، فوقف البعض منهم عن الإجابة عليها متعذرين بأسباب واهية – كما سنذكره لاحقاً – أو من انبرى في الإجابة فوصف الباري عز وجل بما لا يليق به جل شأنه فدخل حد التشبيه بعض منهم، ودخل في حد التعطيل البعض الآخر، ولو أنهم رجعوا إلى عصمة الدين وهم أهل البيت عليهم السلام لما كان ما كان، ولعلموا أن الصفات الإلهية بواقعيتها خارجة عن إحاطة الفكر الإنساني لأن الفكر متناهي والواجب تعالى لامتناهي ويستحيل أن يحيط المتناهي باللامتناهي وهذا الأمر بديهي.

ثم إن العقل البشري غير المجهز بأدوات المعرفة الموصلة لاستئناسه بالموجودات المادية الخارجية تراه حين يتوهم شيئاً لا يدرك كنهه يعطيه صوراً مستوحاة من الأشياء حوله، وهذا المعنى أشار إليه الإمام أبو جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام حيث قال: «كلما ميزتموه بأوهامكم في أدق معانيه مخلوق مصنوع مثلكم مردود إليكم، ولعل النمل الصغار تتوهم أن لله تعالى زبانيتين فإن ذلك كمالها ويتوهم أن عدمها نقصان لمن لا يتصف بهما، وهذا حال العقلاء فيما يصفون الله تعالى به»[1].

لأن العقل البشري يعتقد أن أي موجود لا بد أن يكون جسما متحيزا في مكان ومتصف بقدر وكيفية، فإذا أراد معرفة ذاته تعالى فكل ما يتبادر إلى ذهنه هو من صفات الأجسام وهذا يؤدي إلى التشبيه بل التجسيم، ويلزم أمراً من ثلاث، فأما أن يعترف به وبجسمه وهو التشبيه المنهي عنه، أو ينكر وجوده نعوذ بالله وهو حد التعطيل المنهي عنه أيضاً، وأما أن يتوقف ويقول لا أدري ما أقول فيميل تارة إلى التشبيه وأخرى إلى التعطيل وهو التحيّر.

فالإلزام الأول: هو الاعتقاد بأنه جسم على العرش، ويصطدم هذا الاعتقاد مع قوله تعالى شأنه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ

(١) بحار الأنوار ج ٦٦ ص ٢٩٢ - ٢٩٣

بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[١] ويذهب مذهب الحنابلة والمجسمة حيث اكتفوا بظواهر النصوص واثبتوا له اليد والوجه والعلو على العرش بمعناه الجسماني والرؤية ونزوله كل ليلة جمعة إلى غير ذلك وهو التشبيه والتجسيم بعينه، وإليك أمثلة مما قالوا:

قال أبو الحسن محمد بن عبد الواحد أخبرنا... قال: حدثنا الحسن بن الصباح البزار قال: حدثنا شيخنا وسيدنا أحمد بن حنبل... عن عبد الله بن خليفة عن عمر بن الخطاب قال: إذا جلس تبارك وتعالى على الكرسي سمع له أطيط كأطيط الرحل[٢].

وحدثنا أبو إسماعيل الترمذي حدثنا الحسن بن الصباح البزار حدثنا أحمد بن محمد بن حنبل شيخنا وسيدنا قال: أخبرنا بهز بن أسد حدثنا أبان بن يزيد حدثنا قتادة عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا تزال جهنم تقول هل من مزيد» قال: فيدلي فيها رب العالمين قدمه فينزوي بعضها إلى بعض وتقول قط بعزتك قال: ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقا آخر فيسكنهم إياها[٣].

(١) الحديد ٤

(٢) طبقات الحنابلة - محمد بن أبي يعلي - ج ١ - ص ١٣٤

(٣) طبقات الحنابلة - محمد بن أبي يعلي - ج ١ - ص ١٣٤

ومثال ثالث: قال الصالحي الشامي: روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وحسنه، وابن خزيمة في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه و[آله] وسلم فقال: «أتدرون كم بين السماء والأرض» ؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «بينهما مسيرة خمسمائة سنة، وبين كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة وكثف كل سماء خمسمائة سنة، وفوق السماء السابعة بحر من أعلاه وأسفله كما بين السماء والأرض ثم فوق ذلك ثمانية أو عال بين أظلافهن وركبهن مثل ما بين سماء إلى سماء وفوق ظهورهن العرش وبين أعلاه وأسفله كما بين السماء والأرض ثم الله تعالى فوق ذلك[١].

ومثال رابع: نقل الثعلبي في تفسيره: حدّثنا علي بن الحسن بن شقيق قال: قلت لعبد الله بن المبارك: كيف نعرف ربنا عزّ وجل؟ قال: في السماء السابعة على عرشه، ولا تقول كما قالت الجهمية: ههنا في الأرض[٢].

ومثال خامس: محمد بن إبراهيم القيسي قال لأحمد بن حنبل: يحكى عن ابن المبارك أنه قيل له - كيف نعرف ربنا عز وجل؟ قال في السماء السابعة على عرشه يحد، فقال أحمد هكذا هو عندنا[٣].

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٣ ص ١١٧ - ١١٨

(٢) الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي - ج ٩ - ص ٢٣١

(٣) طبقات الحنابلة لأبي يعلى ج ١ ص ٢٦٧

قال الشهرستاني: أما مشبهة الحشوية فحكى الأشعري عن محمد بن عيسى أنه حكى عن مضر وكهمس وأحمد الهجيمي أنهم أجازوا على ربهم الملامسة والمصافحة وأن المسلمين المخلصين يعانقونه في الدنيا والآخرة إذا بلغوا في الرياضة والاجتهاد إلى حد الإخلاص والاتحاد المحض، وحكى الكعبي عن بعضهم أنه كان يجوز الرؤية في دار الدنيا وأن يزوره ويزورهم، وحكى عن داود الجواربي إنه قال: اعفوني عن الفرج واللحية واسألوني عما وراء ذلك، وقال إن معبوده جسم ولحم ودم وله جوارح وأعضاء من يد ورجل ورأس ولسان وعينين وأذنين، ومع ذلك جسم لا كالأجسام ولحم لا كاللحوم ودم لا كالدماء وكذلك سائر الصفات وهو لا يشبه شيئا من المخلوقات ولا يشبه شيء، وحكى عنه أنه قال هو أجوف من أعلاه إلى صدره مصمت ما سوى ذلك وإن له وفرة سوداء وله شعر قطط[1].

والإلزام الثاني: وهو نفي ما يتصوره العقل البشري عن الله عز وجل، ثم نفي كل ما يوصف به من أوصاف كمالية، وهو ما فعله الجهم بن صفوان حيث نفى الصفات عن الله جل وعلا وامتنع من وصفه تبارك وتعالى بأنه شيء أو حي أو عالم أو مريد، حتى قال: لا أصفه بوصف يجوز إطلاقه على غيره،

(١) الملل والنحل ج ١ ص ١٠٥

وبكلامه هذا جرد الذات الإلهية من الكمالات الوجودية، وكان لهذا الرجل أتباع أُطلق عليهم المعطلة لأخذهم بمقالته، على أن المعتزلة أجري عليهم هذا الاسم لأخذهم بعض آرائه، وهذه المقالة التي عبرت عن عقيدة صاحبها تنافي ما ورد في القرآن الكريم من إثبات الصفات والأسماء الحسنى له كقوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ۝ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1] وبما أن صفاته جل وعلا لا تنحصر بما ذكرها جل شأنه في هذه الآيات لذلك قال: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾.

والإلزام الثالث: وأما أن يأخذ من هذا ضغثاً ومن ذاك ضغثاً، فهو لا يستطيع أن يكون مع المشبهة للإشكالات الواردة على رأيهم، ولا يكون مع المعطلة كذلك، فتراه محتاراً يجمع بين الرأيين ويلفق بين القولين وهو ما فعله الأشعري وأتباعه، محاولين الجمع بين الرأيين بين ما أخبر به القرآن من صفات وتنزيهه عن التشبيه والجسمية ولكنهم أولدوا رأياً مشوهاً، لا يمكن تصوره إن كان لسابقيه تصور ما، ومن كلماتهم: «ينزل

(١) الحشر٢٢ - ٢٤

ربنا»، فقد أخرج البيهقي في كتاب الأسماء والصفات عن أبي محمد المزني يقول حديث النزول قد ثبت عن رسول الله ﷺ من وجوه صحيحة وورد في التنزيل ما يصدقه وهو قوله تعالى: «وجاء ربك والملك صفا صفا» والمجيء والنزول صفتان منفيتان عن الله تعالى من طريق الحركة والانتقال من حال إلى حال، بل هما صفتان من صفات الله تعالى بلا تشبيه جل الله تعالى عما يقول المعطلة لصفاته والمشبهة بها علوا كبيرا، وفي كتاب الدعوات لأبي عثمان وقد اختلف العلماء في قوله ينزل الله فسئل أبو حنيفة فقال: ينزل بلا كيف، وقال بعضهم ينزل نزولا يليق بالربوبية بلا كيف من غير أن يكون نزوله مثل نزول الخلق بالتجلي والتملي، لأنه جل جلاله منزّه عن أن تكون صفاته مثل صفات الخلق كما كان منزها عن أن تكون ذاته مثل ذات الغير فمجيئه وإتيانه ونزوله على حسب ما يليق بصفاته من غير تشبيه وكيفية «انتهى».

وأخرج البيهقي من طريق بقية، قال حدثنا الأوزاعي عن الزهوي ومكحول قالا: امضوا الأحاديث على ما جاءت، ومن طريق الوليد بن مسلم قال: سئل الأوزاعي ومالك وسفيان الثوري والليث بن سعد عن هذه الأحاديث التي جاءت في التشبيه فقالوا: أمروها كما جاءت بلا كيفية، وعن إسحاق بن راهويه يقول: دخلت على عبد الله بن طاهر فقال لي: يا أبا

يعقوب تقول إن الله ينزل كل ليلة، فقلت: أيها الأمير إن الله بعث إلينا نبيا نقل إلينا عنه أخبارا بها نحلل الدماء وبها نحرم وبها نحلل الفروج وبها نحرم وبها نبيح الأموال وبها نحرم فإن صح ذا صح ذاك وإن بطل ذا بطل ذاك قال فأمسك عبد الله «انتهى»[1].

مثال آخر: ﴿إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ جمع ظلة وقرأ قتادة: في ظلال ولها وجهان أحدهما: جمع ظلة فقال: ظلة وظلال مثل جلة وجلال، وظل ظلال كثر حلة وحلل، والثاني: جمع ظل من الغمام وهو السحاب الأبيض الرقيق سمي بذلك لأنه نعم أي يستتر.

عكرمة عن ابن عبّاس في قوله ﴿يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ قال: يأتي الله في ظلة من الغمام قد قطعت طاقات، ورفعه بعضهم سلمة بن وهرام أن عكرمة أخبره أن ابن عبّاس أخبره عن النبيّ ﷺ قال: إن من الغمام طاقات يأتي الله عزّ وجلّ فيها محفوفة بالملائكة وذلك قوله ﴿إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾.

قرأ ابن جعفر بالخفض: عطفاً على الغمام وتقديره مع الملائكة، تقول العرب: أقبل الأمير في العسكر أي مع العسكر.

---

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود ج ٤ص١٤٠

وقرأها الباقون: بالرفع على معنى إلاّ أن يأتيهم الله والملائكة في ظلل من الغمام، يدل عليه قراءة أبي حاتم وعبد الله ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةِ﴾.

أبو العالية والربيع: تأتيهم الملائكة في ظلل من الغمام ويأتي الله تعالى فيما يشاء.

واختلف الناس في ذلك، فقال بعضهم: «في» بمعنى الباء، وتعاقب حروف الصفات شائع مشهور في كلام العرب، تقدير الآية: إلاّ أن يأتيهم الله بظلل من الغمام وبالملائكة أو مع الملائكة، وبهذا التأويل زال الإشكال وسهل الأمر «وأجرى» الباقون للآية.. فهي ظاهره.

ثم اختلفوا في تأويلها ففسره قوم على الإتيان الذي هو الانتقال من مكان إلى مكان، وأدخلوا فيه بلا كيف [يدل عليه] ظواهر أخبار وردت لم يعرفوا تأويلها، وهذا غير مرضي من القول لأنه إثبات المكان لله سبحانه، وإذا كان متمكناً وجب أن يكون محدوداً متناهياً ومحتاجاً وفقيراً، وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وقال بعض المحقّقين الموفقين: أظنّه علي بن أبي طالب عليه السلام: من زعم أن الله تعالى من شيء أو في شيء أو على شيء فقد

ألحد، لأنه لو كان من شيء لكان محدثاً، ولو كان في شيء لكان محصوراً، ولو كان على شيء لكان محمولاً.

وسكت قومٌ عن الخوض في معنى الإتيان فقالوا: نؤمن بظاهره ونقف عن تفسيره؛ لأنّا قد نُهينا أن نقول في كتاب الله تعالى ما لا نعلم ولم ينبّهنا الله تعالى ولا رسوله على حقيقة معناه.

قال يحيى: هذه من «المكتوم» الذي لا يُفسّر، وكان مالك والأوزاعي ومحمد وإسحاق وجماعة من المشايخ يقولون فيه وفي أمثاله أمرّوها كما جاءت بلا كيف[(١)].

«بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء» يعني: [يدا] الله مبسوطتان، يرزق وينفق على مشيئته كيف يشاء، قال أهل العلم: ليس في هذا رد على اليهود في إثباتهم اليد لله - تعالى- وإنما الرد عليهم في نسبته إلى البخل، وأما اليد: صفة لله - تعالى- بلا كيف، وله يدان، وقد صح عن النبي أنه قال: كلتا يديه يمين، والله أعلم بكيفية المراد[(٢)].

أقول: لا فرق بين من يبقي ألفاظ التجسيم على ظاهرها وبين من يأخذ الألفاظ ثم يضيف هذه الإضافة الغامضة «بلا كيف» أو «يليق بالربوبية» فكلاهما قد خرج عن الظاهر في

(١) الجواهر الحسان في تفسير القرآن ج١ ص٢٣٣

(٢) تفسير القرآن أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني

الجملة، فالمعتمد على الجسم أبقى التجسيم ومنع التجرد واللا كيف، والآخر أضاف للا معقوليته اللا كيف، ولا حاصل لقولهم إنّا لا نقول با لجسم إذ لا فرق بين أن يقال هو جسم أو أنه ينزل ويصعد لكن المجيء والنزول صفتان منفيتان عن الله تعالى من طريق الحركة والانتقال من حال إلى حال بل هما صفتان من صفات الله تعالى بلا تشبيه، أو أنه فوق شيء أو يتحرك ويسكن أو أن له يد لكنها بلا كيف أو هو صاحب طول وعرض وعمق أو جالس في المكان أو متحيز وأمثال ذلك، ففي كل الأحوال هي تشير إلى معنى واحد إن أخذت الألفاظ على ظواهرها، وأما إن لم تؤخذ ولم يفهم السامع المقصد فلا يمكن الحكم بصحتها، فالمعهود عند العقلاء الفهم ثم الحكم.

هذا ما أوردناه فيما يكون به العقل البشري غير المجهز بأدوات المعرفة، وأما المجهز فهو يعلم من أين يأخذ هذه الحقيقة، وأين توجد.

ثم إن لكل حقل من حقول المعرفة أدواته فالمختبرات لها أدواتها الحسية وفي الحقول النظرية البحتة تحتاج الى العقل ومواده من الضروريات، وأما من كان خارج حيطة العقل فلا يُدخل الى حظيرته العقل وإنما يستفاد منه لا غير، والذات المقدسة وصفاتها مما خرجت عن حيطة العقل وأوهام الظنون.

عن عبد الرحمن ابن أبي نجران قال: «سألت أبا جعفر الثاني عليه السلام عن التوحيد، فقلت: أتوهم شيئا؟ فقال: نعم! غير معقول ولا محدود، فما وقع وهمك عليه من شيء، فهو خلافه، لا يشبهه شيء، ولا تدركه الأوهام، كيف تدركه الأوهام وهو خلاف ما يعقل، وخلاف ما يتصور في الأوهام؟! إنما يتوهم شئ غير معقول ولا محدود»[1].

وكان دعائه في قنوته عليه السلام يقول: «اللهم أنت الأول بلا أولية معدودة، والآخر بلا آخرية محدودة... ولا تحيط القلوب لك بكنه، ولا تدرك الأوهام لك صفة، ولا يشبهك شيء من خلقك، ولا يمثل بك شيء من صنعتك، تباركت أن تحس أو تمس، أو تدركك الحواس الخمس، وأنى يدرك مخلوق خالقه. وتعاليت يا إلهي عما يقول الظالمون علوا كبيرا»[2]، ولكن ربنا تعالى تجلى لخلقه في كتابه، فالتبيان لكل شيء لا يترك خالق الأشياء مجهولاً عن عباده، قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: فبعث محمداً صلى الله عليه وآله بالحق ليخرج عباده من عبادة الأوثان إلى عبادته، ومن طاعة الشيطان إلى طاعته، بقرآن قد بيّنه وأحكمه، ليعلم العباد ربهم إذ جهلوه، وليقرّوا به إذ جحدوه، وليثبتوه بعد إذ أنكروه، فتجلى لهم سبحانه فى كتابه من غير أن يكونوا رأوه

(١) التوحيد للصدوق ص١٠٦

(٢) البحار ج٨٢ص٢٢٥

بما أراهم من قدرته، وخوفهم من سطوته[١].

ثم إن ما في الكتاب من علم عند رسوله صلى الله عليه وآله، والرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أوضح الملجأ والمنجى عند الحيرة والاضطراب بما خلّف للمسلمين، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله عز وجل وعترتي أهل بيتي، ألا وهما الخليفتان من بعدي، ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض»[٢]، فهم مفسروا الوحي الحقيقيون، وواضح من هذا الحديث أن التمسك بالكتاب والأخذ بما فيه هو التمسك بالعترة بالأخذ من أقوالهم باعتبارهم حجة شرعية إلهية، فعن سعد الإسكاف قال سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول النبي صلى الله عليه وآله إني تارك فيكم الثقلين فتمسكوا بهما فإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض، قال: فقال أبو جعفر: «لا يزال كتاب الله والدليل منا يدل عليه حتى يردا على الحوض»[٣].

ومن العترة إمامنا الجواد عليه السلام الذي أوضح كيفية التعامل والوصول لفهم الصفات الإلهية بلا وقوع في المحاذير السابقة، ففي هذا الحديث المبارك أجاب عليه السلام السائل بأنه شيء أي أنه موجود، وحتى لا يقع وهم السائل بما وقع به غيره من

---

(١) اختيار مصباح السالكين ص٣٠٨

(٢) الأمالي للشيخ الصدوق ص ٥٠٠

(٣) بصائر الدرجات - ص ٤٣٤

أنه إذا كان شيئاً فيلزم التشابه بينه وبين خلقه، قال الإمام الجواد عليه السلام: يخرجه من حد التعطيل والتشبيه، أي على من أعتقد بوجود الله عليه أن يعرف أن ربه تبارك وتعالى لا تسلب منه الصفات الكمالية من علم وحياة وقدرة ومن سلبها فهو معطل، وأن لا يصفه بصفات المخلوقات من جسم ونفس أو من تحيز وفي جهة وفوقية وتحتية وطول وعرض التي هي ذوات أو أعراض المخلوق، وحاصل كلامه عليه السلام إنه يجب على السائل والسامع عند إطلاق الشيء عليه سبحانه أن ينزهه ويدرك أنه شيء موجود لذاته لا يشابه شيء من الموجودات في الذّات والصفات ليخرج بذلك عن حد الإنكار والتعطيل وحد التشبيه والتجسيم وهو التوحيد الصافي.

وقد أكد الإمام الجواد عليه السلام في أحاديثه وأجوبته لمواليه على هذا المعنى وحذر من الانزلاق عن جادة الحق والصواب، ونختم كلامنا ببعض ما روي عنه في هذا الشأن:

١. روى أبو هاشم داود بن القاسم الجعفري، قال: قلت لأبي جعفر الثاني عليه السلام: «قل هو الله أحد»، ما معنى الأحد؟ قال: المجمع عليه بالوحدانية، أما سمعته يقول: «ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله» ثم يقولون بعد ذلك: له شريك وصاحبة، فقلت: قوله: «لا تدركه الأبصار»؟ قال: يا أبا

هاشم! أوهام القلوب أدق من أبصار العيون، أنت قد تدرك بوهمك السند والهند، والبلدان التي لم تدخلها، ولا تدرك ببصرك ذلك، فأوهام القلوب لا تدركه، فكيف تدركه الأبصار؟![1]

٢. حدثنا علي بن أحمد بن محمد بن عمران الدقاق رحمه الله، قال: حدثنا محمد بن أبي عبد الله الكوفي، قال: حدثني محمد بن بشر، عن أبي هاشم الجعفري، قال: كنت عند أبي جعفر الثاني عليه السلام فسأله رجل، فقال: أخبرني عن الرب تبارك وتعالى، له أسماء وصفات في كتابه؟ فأسماؤه وصفاته هي هو؟ فقال أبو جعفر عليه السلام: إن لهذا الكلام وجهين: إن كنت تقول: هي هو، أي أنه ذو عدد وكثرة، فتعالى الله عن ذلك، وإن كنت تقول: لم تزل هذه الصفات والأسماء، فإن لم تزل يحتمل معنيين: فإن قلت: لم تزل عنده في علمه وهو مستحقها، فنعم، وإن كنت تقول: لم يزل تصويرها وهجاؤها وتقطيع حروفها فمعاذ الله أن يكون معه شيء غيره، بل كان الله ولا خَلْق، ثم خلقها وسيلة بينه وبين خلقه، يتضرعون بها إليه، ويعبدونه، وهي ذكره، وكان الله ولا ذكر، والمذكور بالذكر هو الله القديم الذي لم يزل، والأسماء والصفات مخلوقات

(١) الاحتجاج ج٢ص٢٣٨

المعاني، والمعني بها هو الله الذي لا يليق به الاختلاف والائتلاف، وإنما يختلف ويأتلف المتجزئ فلا يقال: الله مؤتلف، ولا الله كثير، ولا قليل، ولكنه القديم في ذاته، لأن ما سوى الواحد متجزئ، والله واحد لا متجزئ، ولا متوهم بالقلة والكثرة، وكل متجزئ ومتوهم بالقلة والكثرة، فهو مخلوق دال على خالق له، فقولك: إن الله قدير خبرت أنه لا يعجزه شيء، فنفيت بالكلمة: العجز، وجعلت العجز سواه. وكذلك قولك: عالم إنما نفيت بالكلمة: الجهل، وجعلت الجهل سواه، فإذا أفنى الله الأشياء أفنى الصور والهجاء، ولا ينقطع ولا يزال من لم يزل عالما.

قال الرجل: كيف سمي ربنا سميعا؟ قال: لأنه لا يخفى عليه ما يدرك بالأسماع، ولم نصفه بالسمع المعقول في الرأس. وكذلك سميناه بصيرا لأنه لا يخفى عليه ما يدرك بالأبصار، من لون وشخص وغير ذلك، ولم نصفه بنظر لحظ العين. وكذلك سميناه لطيفا لعلمه بالشيء اللطيف مثل البعوضة وأحقر من ذلك، وموضع الشق منها، والعقل والشهوة، والسفاد، والحدب على نسلها، وإفهام بعضها عن بعض، ونقلها الطعام والشراب إلى أولادها في الجبال، والمفاوز، والأودية، والقفار، فعلمنا أن خالقها لطيف بلا كيف، وإنما الكيفية للمخلوق المكيف.

وكذلك سمي ربنا قويا لا بقوة البطش المعروف من المخلوق، ولو كان قوته قوة البطش المعروف من الخلق لوقع التشبيه ولاحتمل الزيادة، وما احتمل الزيادة احتمل النقصان، وما كان ناقصا كان غير قديم، وما كان غير قديم كان عاجزا. فربنا تبارك وتعالى لا شبه له ولا ضد، ولا ند، ولا كيف، ولا نهاية، ولا أقطار، محرم على القلوب أن تمثله، وعلى الأوهام أن تحده، وعلى الضمائر أن تكيفه جل عن أداة خلقه، وسمات بريته، وتعالى عن ذلك علواً كبيرا[1].

١. عن عبد الرحمن بن أبي نجران قال: كتبت إلى أبي جعفر عليه السلام أو قلت له: نعبد الرحمن الرحيم الواحد الأحد الصمد؟ قال: فقال عليه السلام: إن من عبد الاسم دون المسمى بالأسماء، أشرك وكفر وجحد ولم يعبد شيئا، بل أعبد الله الواحد الأحد الصمد المسمى بهذه الأسماء دون الأسماء، إن الأسماء صفات وصف بها نفسه[2].

(١) التوحيد للصدوق ص١٩٣

(٢) الكافي ج١ ص٨٨

الحديث الثاني

منزلة النبي

حدثنا أحمد بن محمد عن أبي عبد الله البرقي عن جعفر بن محمد الصوفي قال سألت أبا جعفر عليه السلام محمد بن علي الرضا عليه السلام وقلت له: يا ابن رسول الله لِمَ سُمّي النبي الأمي؟ قال: ما يقول الناسَ؟ قال: قلت له جعلت فداك يزعمون إنما سمّي النبي الأمي لأنه لم يكتب، فقال: كذبوا عليهم لعنة الله أنى يكون ذلك والله تبارك وتعالى يقول في محكم كتابه: هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، فكيف كان يعلّمهم ما لا يحسن؟ والله لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقرأ ويكتب باثنين وسبعين أو بثلاثة وسبعين لسانا وإنما سمي الأمي لأنه كان من أهل مكة و مكة من أمهات القرى وذلك قول الله تعالى في كتابه: لتنذر أم القرى ومن حولها[1].

(١) بصائر الدرجات ص ٢٤٥ - ٢٤٦

أوجد الله سبحانه وتعالى الخلق وأظهرهم في ساحة الوجود الخارجي عند خلقه لآدم عليه السلام وهم متساوون من حيث المظهر الخارجي، إلا أنهم في الجانب الآخر غير متساوون، فنرى تفاوت الصفات والاستعدادات، ولهذا اصطفى الله جل وعلا عدداً منه بأن جعلهم خلفاءه في الأرض، وهؤلاء الخلفاء لم يكونوا كلهم في مرتبة واحدة بل هناك تفاوت في شدة استعداده فكان التفاوت بينهم على ما ذكره القرآن المجيد قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾[1] فهم وإن كانوا متساوون من حيث النبوة لكنهم متفاوتون في الاستعداد وفي مقدار التضحيات وغيرها كما ذكرها السيد السبزواري حيث يقول: ثم إنّ تفاضل الرسل بعضهم على بعض يكون من جهات:

الأولى: اختلاف الاستعدادات التي لا يعلمها إلا اللّه تعالى.

الثانية: اختلاف نفس هذا المقام الإلهي و الجمال المعنوي، فإنه إذا كان للجمال الظاهري مراتب لا تحصى، فالجمال المعنوي أحق بذلك وأولى.

الثالثة: الاختلاف في العلوم و المفاض عليهم من عالم الغيب.

(١) سورة البقرة ٢٥٣

الرابعة: الاختلاف في مراتب الانقطاع إليه عز وجل التي لا نهاية لها.

الخامسة: الاختلاف في مراتب تحمل الأذى في إبلاغ الرسالة الإلهية.

السادسة: الاختلاف في عدد الأمة و الأتباع و فضائلهم المعنوية.

السابعة: الاختلاف في الشريعة في كمالها وتأييدها ونحو ذلك.

الثامنة: الاختلاف في كون كتبهم السماوية شرعة و منهاجا لعدد من الأنبياء اللاحقين.

التاسعة: الاختلاف في تشعير المشاعر الدينية و إعلامها.

العاشرة: الاختلاف في البينات و الآيات و المعجزات كمية وكيفية.

الحادية عشرة: الاختلاف في التصرف في هذا العالم وهم في عالم البرزخ في كونهم واسطة الفيض و البركات التي تنزل عليهم ثم منهم إلى غيرهم.

الثانية عشرة: الاختلاف في الغرض و هو مراتب الجنان

فإن الأنبياء (عليهم السلام) يختلفون فيها فإن بعضهم في جنة الرضا وبعضهم في الرضوان.

وبعض تلك الأمور من الأمور التكوينية الذاتية وبعضها من المجعولة للذات، والجميع تنتهي إليه عزّ وجل إمّا بالجعل البسيط أو المركب ولا يسع المقام تفصيل ذلك وكيف كان فإنّ جميع تلك الجهات موجودة في نبينا الأعظم (صلى الله عليه وآله) الذي جعله خاتما لما سبق و فاتحا لأبواب المعارف على اللاحقين وهو صاحب المعجزة الخالدة[1].

فهذه منازل خاصة تفاوتت بها الأنبياء وحدهم ليس لباقي الناس بها دخالة، ثم إن النبوة أصطفاء إلهي لرجل من سائر الخلق، يكون الوساطة بين الخالق والمخلوق، وهذا الخلق الصافي النقي، يقوم بأداء مهمة الرابط بين العالي والداني، ويبلغ ما يريده الله إلى خلقه من خلاله، فيجب أن يكونوا قدوة وأسوة لأتباعه وقد صرّح الكتاب المجيد بذلك كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[2] ونلاحظ الإشارة القرآنية في قضية التأسي لم تقيد في شأن معين بل أطلقها جل وعلا وفيها دلالة واضحة على

(١) مواهب الرحمان في تفسير القرآن، ج٤، ص: ١٨٥-١٨٦

(٢) الأحزاب ٢١

كمالاتهم، ولو لم يكونوا بهذه المنزلة والشأنية لما أمر بالاتّباع، فالنبوة منزلة تلزم كمالات خاصة للنبي ليست موجودة في أحد غيره من سائر الموجودين معه في زمانه، وفي هذا الحديث المبارك أبان الإمام بعض أحوال النبي (صلى الله عليه وآله) للسائل بعد أن استفهم من السائل عن قول الناس وما يحكونه عن النبي وما يحدثهم به علماؤهم من صفات له (صلى الله عليه وآله) وما يتداولونه في أحواله (صلى الله عليه وآله)، فقد أنزلوا النبي الأكرم إلى رتبة الإنسان العادي متناسين أن الاصطفاء ليس أمراً تابعا لقانون إلهي، ينبع هذا القانون من علمه جل وعلا المحيط بكل شيء، لقد كان النبي (صلى الله عليه وآله) قبل المبعث موصوفا بأكثر من عشرين خصلة من خصال الأنبياء التي لو انفرد واحدٌ بأحدها لدلّ على جلالته، فكيف من اجتمعت فيه كل هذه الخصال؟! فقد كان أمينا صادقا حاذقا أصيلا نبيلا مكينا فصيحا عاقلا فاضلا عابدا زاهدا سخيا كميا قانعا متواضعا حليما رحيما غيورا صبورا موافقا مرافقا لم يخالط منجما ولا كاهنا ولا عيافا.

وعلى الرغم من ذلك فإن المتتبع لكتب المسلمين يجد فيها ما تقشعر منه الجلود وتشمئز منه النفوس، ولو قُرأت هذه الأحاديث على غافل لوصف فاعلها بأرذل الأوصاف، ونحن ذاكرون بعضاً منها:

١ - روى البخاري في صحيحه أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قبل أن ينزل

عليه الوحي قدم إلى زيد بن عمرو بن نفيل سفرة فيها لحم فأبى أن يأكل منها ثم قال: اني لا آكل إلا مما ذكر اسم الله عليه، إذن فإن زيدا كان في الجاهلية أفضل من رسول الله يتجنب من أمر الجاهلية ما لا يتجنبه رسول الله ﷺ، وإليك ما رواه البخاري:

حدثنا عبد العزيز يعني ابن المختار أخبرنا موسى بن عقبة قال أخبرني سالم انه سمع عبد الله يحدث عن رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم انه لقى زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح، وذاك قبل أن ينزل على رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم الوحي فقدم إليه رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم سفرة فيها لحم فأبى أن يأكل منها ثم قال، إني لا آكل مما تذبحون على أنصابكم ولا آكل إلا مما ذكر اسم الله عليه[1].

ونفس المعنى رواه أحمد قال: عن نفيل بن هشام بن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل عن أبيه عن جده قال كان رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم بمكة هو وزيد بن حارثة فمر بهما زيد بن عمرو بن نفيل فدعَوه إلى سفرة لهما فقال: يا ابن أخي إني لا آكل مما ذبح على النصب، قال فما رؤي النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم بعد ذلك أكل شيئا مما ذبح على النصب[2].

---

(١) صحيح البخاري - البخاري - ج ٦ - ص ٢٢٥

(٢) مسند احمد - الإمام احمد بن حنبل - ج ١ - ص ١٨٩

٢- روى البخاري ومسلم إن رسول الله ﷺ كان يغضب فيلعن ويسب ويؤذي من لا يستحقها ودعا الله أن يجعلها لمن بدرت منه إليه زكاة وطهورا، قال مسلم في باب من لعنه النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم أو سبه من كتاب الأدب عن عائشة قال النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم: أو ما علمت ما شارطت عليه ربي، قلت اللهم إنما أنا بشر فأي المسلمين لعَنتُه أو سَبَبتُه فاجعله له زكاة وأجرا، وأخرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم: اللهم إنما أنا بشر فأيما رجل من المسلمين سببته أو لعنته أو جلدته فاجعلها له زكاة ورحمة، وفي لفظ له عن أبي هريرة قال :اللهم إني أتخذ عندك عهدا لن تخلفنيه فإنما أنا بشر فأي المؤمنين آذيته شتمته لعنته جلدته فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة، وفي لفظ له: اللهم إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر وإني قد اتخذت عند الله عهدا، فذكره[1].

هذا ما ذكره أبو هريرة وعائشة، ولكن ماذكره الله تبارك وتعالى غير ماذكروه في نبيه ﷺ حيث يقول: «وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ» فالشخص العادي، الذي لا تتوفر فيه صفات النبوة يترفع عن لعن وسب من لا يستحق اللعنة والمسبة، فكيف بالنبي ذي الخلق العظيم، السمح، الليّن، الذي لا يعرف الفضاضة

---

(١) عون المعبود - العظيم آبادي - ج ١٢ - ص ٢٧٠

إطلاقا، صاحب الصدر الواسع؟ إنا لله وإنا إليه راجعون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، وإذا كان الأمر على هذه الشاكلة، فمن مصلحة كل مسلم أن يثير غضب النبي، حتى يسبه النبي ويشتمه، ليحصل على الزكاة والطهر!!!!

٣-إن محمد بن عبد الرحمن حدثه عن عروة عن عائشة انها قالت دخل على رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم وعندي جاريتان تغنيان بغناه بعات فاضطجع على الفراش وحوّل وجهه ودخل أبو بكر فانتهرني وقال مزمارة الشيطان عند رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم؟! فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم فقال: دعهما، فلما غفل غمزتهما فخرجتا.

وقالت كان يوم عيد يلعب السودان بالدرق والحراب فإما سألت رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم وإما قال: تشتهين تنظرين؟ فقلت: نعم، قالت: فأقامني وراءه خدي على خده وهو يقول: دونكم يا بنى أرفدة، حتى إذا مللت قال: حسبك؟ قلت: نعم، قال: اذهبي[1].

٤-عن ابن عباس مرفوعا أن أصحاب النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم جلسوا سماطين وجاءت جارية يقال لها سيرين معها مزهر تختلف به بين القوم وهى تغنيهم وتقول هل عليّ

(١) أنظر السنن الكبرى ج ١٠ ص ٢١٨

ويحكم إن لهوت من حرج؟ فتبسم النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم وقال: لا حرج إن شاء الله تعالى[1].

٥- وما روى عن عائشة قالت: دخل عليّ رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم وعندي جاريتان من جوارى الأنصار يغنيان وفى رواية يضربان بدفين، فاضطجع صلى الله عليه [وآله] وسلم على الفراش وحوّل وجهه، ودخل أبو بكر فانتهرني فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم فقال دعها، وفي رواية قال أبو بكر: بمزمور، وفي رواية بمزمار، وفي لفظ بمزمارة الشيطان في بيت رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم، قال ذلك مرتين وانتهرني، وكان صلى الله عليه [وآله] وسلم متغشيا بثوبه فكشف النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم عن وجهه الشريف فقال: دعها يا أبا بكر فإنها أيام عيد، أي لأن تلك كانت أيام منى، وقيل كان يوم عيد الفطر وقيل الأضحى ولا مانع من تعدد الواقعة، أقول في البخاري عن الربيع بنت معوذ أنه صلى الله عليه [وآله] وسلم دخل عليها غداة بنى عليها وعندها جويريات يضربن بالدف يندبن من قتل من آبائهن يوم بدر حتى قالت جارية: وفينا نبي يعلم ما في غد؟ فقال لها النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم: لا تقولي هكذا وقولي ما كنت تقولين[2].

(١) السيرة الحلبية للحلبي ج ٢ ص ٢٤٦

(٢) أنظر السيرة الحلبية للحلبي ج ٢ ص ٢٤٧

٦-وفي حديث أبى هريرة: أن النبى صلى الله عليه [وآله] وسلم خرج في بعض مغازيه فلما انصرف جاءت جارية سوداء فقالت: يا رسول الله إنى كنت نذرت إن ردك الله سالما أن أضرب بين يديك بالدف، فقال لها: إن كنت نذرت فاضربي فجعلت تضرب، فدخل أبو بكر وهي تضرب ثم دخل عمر فألقت الدف تحتها وقعدت عليه، فقال النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم إن الشيطان ليفرق منك يا عمر إني كنت جالساً وهي تضرب ودخل أبو بكر وهي تضرب فلما دخلت أنت ألقت الدف[١].

هذه الأحاديث في صفة النبي صلى الله عليه وآله وأحواله تُكوّن رؤية تناقض الحقيقة وتبتعد عنها بُعد المشرق عن المغرب، فهذه الأحاديث ما هي إلا صناعة المنافقين الذين في قلوبهم مرض للحطّ من قيمة النبي صلى الله عليه وآله والتي من خلالها يكون الحط من الإسلام كدين ومعتقد ورؤية كونية.

إن كذب هذه الأحاديث من الوضوح بمكان، فالمسلم حينما يقرأ الكتاب المجيد سوف يجد ما للأنبياء عليهم السلام من مرتبة لا يمكن تقييمها وقياسها بالمقاييس البشرية، وهذا المقام العظيم لم يأتِ إلا بمقدمات واستعدادات عالية لو لم يتحلى بها الأنبياء لم يمكنهم نيل هذا المقام الإلهي، وعليه فلمعرفة هذا

(١) أنظر السيرة الحلبية للحلبي ج ٢ ص ٢٤٧ وروى مقطعاً منه البيهقي في السنن الكبرى ج١٠ ص ٧٧وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ج٤٤ص٨٣

المقام الشامخ وتصوره نحتاج إلى قول حق وخير الأقوال الحقة هو الكتاب المجيد قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[١]، وقال جل وعلا: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[٢]، وقال تبارك اسمه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[٣]، وقال عظم شأنه: ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ - إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[٥]، وفي هذه الآيتين تصريح قرآني بعدم إغواء المُخلَصين وسادة المُخلَصين الأنبياء فكيف يغويهم الشيطان بمزاميره أو غيرها؟!

وقال تعالى في خصوص نبينا محمد صلى الله عليه وآله: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾[٦]، قال ابن عباس: من نبي إلى نبي ومن نبي إلى نبي حتى أخرجك نبياً.

والصادق الآخر هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أخوه

(١) الأنعام/ ١٢٤

(٢) الحج/ ٧٥

(٣) الأنعام/ ٩٠

(٤) الزمر/ ٣٧

(٥) الحجر/ ٤٠

(٦) الشعراء ٢١٨-٢١٩

وتلميذه وأقرب الناس إليه والذي قال عن صحبته إليه: وكنت اتبعه اتباع الفصيل إثر أمه، فقد وصف النبيَّ ببعض صفاته ومآثره ننقل منها:

قال الإمام علي عليه السلام: إلى أن بعث الله سبحانه محمّداً رسول الله ... مشهورة سماته، كريما ميلاده... ثمّ اختار سبحانه لمحمّد - صلى الله عليه وآله - لقاءه، ورضي له ما عنده، وأكرمه عن دار الدّنيا، ورغب به عن مقام البلوى، فقبضه إليه كريما صلى الله عليه وآله[1].

وقال عليه السلام: اللَّهمّ اجعل شرائِفَ صلواتك، ونوامِيَ بركاتك، على محمّد عبدك ورسولك، الخاتم لما سبق، والفاتح لما انغلق، والمعلن الحقّ بالحقّ، والدّافع جيشات[2] الأباطيل، والدّامغ صولات الأضاليل، كما حمّل فاضطلع، قائماً بأمرك، مستوفزاً[3] في مرضاتك، غير ناكل عن قدم[4]، ولا واه في عزم، واعياً لوحيك، حافظاً لعهدك، ماضيا على نفاذ أمرك، حتّى أورى قبس القابس، وأضاء الطَّريق للخابط، وهديت به القلوب، بعد خوضات الفتن والآثام، وأقام بموضحات الأعلام، ونيّرات الأحكام، فهو أمينك المأمون، وخازن علمك المخزون،

(١) البحار ج٨٩ص٣٩

(٢) جمع جيشة، من جاشت القدر إذا ارتفع غليانها

(٣) أي مسرعا

(٤) وهو المشي إلى الحرب

وشهيدك يوم الدّين، وبعيثك بالحقّ، ورسولك إلى الخلق[1].

وقال عليه السلام: وعمّر فيكم نبيّه أزماناً، حتّى أكمل له ولكم - فيما أنزل من كتابه - دينه الَّذي رضي لنفسه، وأنهى إليكم على لسانه محابّه من الأعمال ومكارهه، ونواهيه وأوامره[2].

وقال عليه السلام: حتّى أفضت كرامة الله سبحانه وتعالى إلى محمّد صلى الله عليه وآله فأخرجه من أفضل المعادن منبتا، وأعزّ الأرومات مغرساً، من الشّجرة الَّتي صدع منها أنبياءه، وانتجب منها أمناءه، فهو إمام من اتّقى، وبصيرة من اهتدى، سراج لمع ضوؤه، وشهاب سطع نوره، وزند برق لمعه، سيرته القصد، وسنّته الرّشد، وكلامه الفصل، وحكمه العدل، أرسله على حين فترة من الرّسل، وهفوة عن العمل[3]، وغباوة من الأمم[4].

وقال عليه السلام: فبالغ صلى الله عليه وآله في النّصيحة، ومضى على الطَّريقة، ودعا إلى الحكمة، والموعظة الحسنة[5].

(١) شرح نهج البلاغة لأبن أبي الحديد ج٦ ص١٣٨

(٢) نهج البلاغة ج١ ص١٥٠

(٣) أي زلة وانحراف من الناس عن العمل بما أمر الله على لسان أنبيائه السابقين

(٤) نهج البلاغة ج١ ص١٨٥

(٥) نهج البلاغة ج١ ص١٨٦

وقـال عليه السلام: مسـتقرّه خـير مسـتقرّ، ومنبته أشـرف منبت، في معـادن الكرامـة، ومماهـد السّـلامة، قـد صرفت نحـوه أفئدة الأبـرار، وثنيت إليه أزمّة الأبصار، دفن اللّه به الضّغائن، وأطفأ بـه الثّوائـر، ألّف به إخوانا، وفرّق به أقرانـا، أعزّ به الذّلّة، وأذلّ به العزّة، كلامه بيان، وصمته لسان[١].

وقال عليه السلام: ونشـهد أن لا إله غيره، وأنّ محمّداً عبده ورسوله، أرسله بأمره صادعاً، وبذكره ناطقاً، فأدّى أميناً، ومضى رشيداً، وخلّف فينا راية الحقّ[٢].

وقـال عليه السلام: فقاتل [أي النبي] بمن أطاعه من عصاه، يسـوقهم إلى منجاتهم، ويبادر بهم السّـاعة أن تنزل بهم، يحسر الحسير [أي يعا لج الضعيف]، ويقف الكسـير [أي المكسـور]، فيقيم عليه حتّى يلحقه غايته، إلّا هالكا لا خير فيه، حتّى أراهم منجاتهم، وبوّأهم محلّتهم، فاستدارت رحاهم، واستقامت قناتهم[٣].

وقال عليه السلام: حتّى بعث اللّه محمّداً صلى الله عليه وآله، شـهيداً وبشيراً ونذيراً، خـير البريّـة طفـلا، وأنجبها كهـلا، وأطهـر المطهّرين شـيمة،

(١) نهج البلاغة ج١ ص١٨٧

(٢) نهج البلاغة ج١ ص١٩٣

(٣) نهج البلاغة ج١ ص١٩٩

وأجود المستمطرين ديمة[١].

وقـال عليه السلام: حتّى أورى قبسـا لقابس، وأنـار علما لحابس، فهو أمينك المأمون، وشـهيدك يوم الدّين، وبعيثك نعمة، ورسـولك بالحـقّ رحمـة، اللّهـمّ اقسـم لـه مقسـما مـن عدلـك، واجـزه مضعّفات الخير من فضلك، اللّهمّ أعل على بناء البانين بناءه، وأكرم لديك نزله، وشـرّف عندك منزله، وآته الوسـيلة، وأعطه السّـناء [أي الرفعة] والفضيلة، واحشـرنا في زمرته غير خزايا، ولا نادمـين ولا ناكبـين، ولا ناكثين ولا ضالّـين، ولا مضلّين ولا مفتونين[٢].

وقال عليه السلام: اختاره من شجرة الأنبياء، ومشكاة الضّياء، وذؤابة العلياء، وسرّة البطحاء، ومصابيح الظّلمة، وينابيع الحكمة[٣].

وقـال عليه السلام: في ذكر النبي صلى الله عليه وآله : قد حقّر الدّنيا وصغّرها وأهون بهـا وهوّنهـا، وعلـم أنّ اللّه زواها عنـه اختيارا، وبسـطها لغيره احتقـارا، فأعـرض عن الدّنيـا بقلبه، وأمات ذكرها عن نفسـه، وأحـبّ أن تغيـب زينتها عـن عينه، لكيلا يتّخذ منها رياشـاً، أو

(١) نهج البلاغة ج١ ص٢٠٠

(٢) نهج البلاغة ج١ ص١٢٢

(٣) نهج البلاغة ج١ ص٢٠٦

يرجو فيها مقاماً، بلّغ عن ربّه معذراً، ونصح لأمّته منذراً، ودعا إلى الجنّة مبشّراً، وخوّف من النّار محذّراً[١].

وقال (عليه السلام): واقتدوا بهدي نبيّكم فإنّه أفضل الهدي، واستنّوا بسنّته فإنّها أهدى السّنن[٢].

ولقد قرن الله به (صلى الله عليه وآله) من لدن أن كان فطيما أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره. ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أمه يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علما ويأمرني بالاقتداء به، ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الاسلام غير رسول الله (صلى الله عليه وآله) وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة، وأشم ريح النبوة ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحي عليه (صلى الله عليه وآله)، فقلت يا رسول الله ما هذه الرنة؟ فقال هذا الشيطان أيس من عبادته[٣].

هذه هي الصورة الواقعية للنبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) التي حفظها أهل البيت النبوي (عليهم السلام) عن خاتم الرسل لا ما نقله مرضى القلوب،

(١) نهج البلاغة ج١ ص٢١٤

(٢) نهج البلاغة ج١ ص٢١٦

(٣) نهج البلاغة ج ٢ ص ١٥٧ - ١٥٨

ولو حفظ المسلمون هذه الصورة عنه (صلى الله عليه وآله) لما وجدنا اليوم من يستخف ويهون أمر النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله)، وكل الذي صدر من تهوين لأمره (صلى الله عليه وآله) ما هو إلا نتيجة لتلك الأقوال البائسة التي رووها، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

الحديث الثالث

الإيمان الكامل

قال الإمام محمد بن علي التقي عليه السلام: «وأربع من كن فيه استكمل إيمانه؛ مَن أعطى لله، ومنع في الله، وأحب لله، وأبغض فيه»[1].

إن السلوك إلى الله تعالى عبارة عن أعمال توجب تنزيه القلب عن الشهوات والأوهام والرذائل الخلقية بالتدريج شيئا بعد شيء حتى يصل إلى مقام يليق به، فإن رفض حب الدنيا وتمحض في عالم الغيب بحيث لو انكشف الغطاء ما ازداد يقينا، أو قارب ذلك المقام ناسب أن يصافح الملائكة ويمشي على الماء، ويظهر منه الكرامات، وهذا مقام مستكمل الإيمان بدرجاته، ويطلق عليه في عبارات أهل المعرفة بالولي الكامل، وهذا المعنى متفق عليه عند المسلمين وإن اختُلِف في التسمية أو بطريقة حصول هذه الرتب والمقامات، أو بكيفية الوصول إليها، وقبل الخوض في معنى الحديث وإشارات الإمام الجواد عليه السلام، علينا تقديم مقدمة للبحث حول الإيمان، وهل أن الإيمان هو الإسلام أم هو غيره؟ وهل يوجد ما يعضد رأي الاتفاق بين

(١) كشف الغمة للأربلي ج٣ ص١٤١

المعنيين؟ أم أن المراد من الإيمان هو رتبة تحصل بعد الإسلام، وهل أن الإيمان هو إقرار باللسان فقط أم اعتقاد في القلب وإن لم يقر بلسانه؟ أم هو مركب من الاثنين أو هو المركب من الاثنين مع إضافة العمل؟ هذه جملة أمور نذكرها كي تتضح صورة الإيمان..

الإيمان لغة: هو مطلق التصديق، وهذا المعنى متفق عليه عند اللغويين، والتصديق هو إذعان النفس بالشيء الذي يوجب سكون النفس وعدم اضطرابها، وبالتصديق يرتفع القلق والشك حيث أن الشك موجب لقلق النفس، وللإجابة على سؤال: هل أن الإيمان هو الإسلام أم هو غيره؟ وهل يوجد ما يعضد رأي الاتفاق بين المعنيين أم أن المراد من الإيمان هو رتبة تحصل بعد الإسلام؟

نقول هنالك فرق بين الإسلام والإيمان حيث أطلق لفظ الإسلام على معنيين أحدهما عام والآخر خاص، ومن العام ما جاء في قوله تعالى: «قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم»، ويظهر منه أن الإسلام هو الإقرار باللسان وله شكل ظاهري، فمن تشهد بالشهادتين بلسانه فهو من زمرة المسلمين وتجري عليه أحكام المسلمين وهذا المعنى تؤيده أحاديث وردت عن أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام.

ومـن المعنـى الخـاص قولـه تعـالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلاَمُ﴾[١]، فأطلـق الإسـلام في الآيـة الشـريفة على الدين الـذي هـو حقيقـة الإيمان، قـال أمير المؤمنين عليه السلام: «لأنسـبن اليوم الإسلام نسبة لم ينسبه أحد قبلي ولا ينسبه أحد بعدي إلا بمثـل ذلـك، الإسـلام هو التسـليم، والتسـليم هـو اليقين، واليقـين هـو التصديـق، والتصديـق هو الإقـرار، والإقـرار هو العمـل، والعمـل هـو الأداء، إن المؤمـن لم يأخذ دينـه عن رأيه ولكـن أتـاه عن ربـه فأخذ بـه، إن المؤمـن يرى يقينـه في عمله، والكافر يرى إنكاره في عمله، فوالذي نفسـي بيده ما عرفوا أمر ربهم فاعتبروا انكار الكافرين والمنافقين بأعمالهم الخبيثة»[٢].

فالإسـلام على هذا يساوي ويسـاوق الإيمان بالمعنى الخاص، ويؤيد هذا التقسيم ما رواه الشيخ المجلسي في بحاره عن كتاب الكافي: «عن علي بن الحكم، عن سـفيان بن المسـط قال: سـأل رجل أبا عبد الله عليه السلام عن الإسـلام والإيمان، ما الفرق بينهما؟ فلـم يجبه ثم سـأله فلم يجبه، ثم التقيـا في الطريق وقد أزف مـن الرجـل الرحيـل، فقال له أبـو عبد الله عليه السلام: كأنـه قد أزف منك رحيل؟ فقال: نعم، فقال: فالقني في البيت، فلقيه فسأله عن الإسـلام والإيمان ما الفرق بينهما؟ فقال عليه السلام: الإسلام هو

(١) آل عمران ١٩

(٢) المحاسن للبرقي ج١ ص٢٢٢

الظاهر الذي عليه الناس شـهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصيام شهر رمضان، فهذا الإسلام، وقال: الإيمان معرفة هذا الأمر، مع هذا فإن أقر بها ولم يعرف هذا الأمر كان مسلما وكان ضالا.

ثم علق الشيخ المجلسي رحمه الله قائلاً: كأن تأخير الجواب للتقية والمصلحة، ويظهر من الرواية أن بين الإيمان والإسـلام فرقان؛ أحدهمـا أن الاسـلام هـو الانقيـاد الظاهـري، ولا يعتـبر فيه التصديـق والإذعـان القلـبي بخـلاف الإيمان فإنـه يعتبر فيه الاعتقـاد القلبي بل القطعي، وثانيهمـا اعتبار اعتقاد الولاية فيـه، وذكر الأعمال إما بناء على اشـتراط الإيمان بالأعمال أو المراد الاعتقاد بها، ويرشـد إليه قوله «فان أقرّ بها» أو الغرض بيان العقائد وجل الاعمال المشتركة بين أهل الإسلام والإيمان، والوصـف بالضـلال وعدم إطـلاق الكفر عليهم إمـا للتقية في الجملـة، أو لعـدم توهـم كونهـم في الاحكام الدنيويـة في حكم الكفـار، ثـم أن الاختـلاف بـين المسـلمين لم ينظـر إلى المعنى الخاص»[١].

وعليـه فـإن هنالـك تغاير بين معنـى الإيمان والإسـلام وقد أوضحـه الإمام الصـادق عليه السلام: «معنى الايمان الإقرار والخضوع لله بذلك.. الإقرار والتقرب إليه به، والأداء له بعلمٍ كلّ مفروض

(١) البحار ج٦٥ ص٢٤٧

من صغير أو كبير، من حد التوحيد فما دونه إلى آخر باب من أبواب الطاعة أولا فأولا، مقرون ذلك كله بعضه إلى بعض، موصول بعضه ببعض، فإذا أدى العبد ما فرض عليه مما وصل إليه على صفة ما وصفناه، فهو مؤمن مستحق لصفة الإيمان، مستوجب للثواب، وذلك أن معنى جملة الايمان الإقرار، ومعنى الاقرار التصديق بالطاعة، فلذلك ثبت أن الطاعة كلها صغيرها وكبيرها مقرونة بعضها إلى بعض، فلا يخرج المؤمن من صفة الايمان إلا بترك ما استحق أن يكون به مؤمنا، وإنما استوجب واستحق اسم الايمان ومعناه بأداء كبار الفرائض موصولة، وترك كبار المعاصي واجتنابها، وإن ترك صغار الطاعة وارتكب صغار المعاصي، فليس بخارج من الإيمان ولا تارك له ما لم يترك شيئا من كبار الطاعة، ولم يرتكب شيئا من كبار المعاصي، فما لم يفعل ذلك فهو مؤمن لقول الله ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾، يعني المغفرة ما دون الكبائر، فإن هو ارتكب كبيرة من كبائر المعاصي كان مأخوذا بجميع المعاصي صغارها وكبارها معاقبا عليها معذبا بها، فهذه صفة الإيمان، وصفة المؤمن المستوجب للثواب، وأما معنى الاسلام فهو الاقرار بجميع الطاعة الظاهر الحكم والأداء له، فإذا أقر المقر بجميع الطاعة في الظاهر، من غير العقد عليه بالقلوب فقد استحق اسم الاسلام ومعناه،

واستوجب الولاية الظاهرة، وإجازة شهادته والمواريث، وصار له ما للمسلمين، وعليه ما على المسلمين، فهذه صفة الإسلام»[1].

عن فضيل بن يسار قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إن الإيمان يشارك الإسلام ولا يشاركه الإسلام، إن الإيمان ما وقر في القلوب والإسلام ما عليه المناكح والمواريث وحقن الدماء، والإيمان يشرك الاسلام والإسلام لا يشرك الإيمان»[2]، ومثله غيره وهو كثير. فعلى هذا الإسلام أعم من الإيمان، والإيمان فوقه بدرجة، وهناك أحاديث أخرى بينت هذا الفرق بين المعنيين فإن شئت فراجع البحار وغيره.

وأما السؤال الآخر الذي يقول: هل أن الإيمان هو إقرار باللسان فقط أم اعتقاد في القلب وإن لم يقر بلسانه؟ أم هو مركب من الاثنين أو هو المركب من الاثنين مع إضافة العمل؟

فقد ذهب المعتزلة والخوارج والزيدية وأهل الحديث إلى أن الإيمان اسم لأفعال القلوب وا لجوارح مع الإقرار باللسان، وأن الإيمان يتناول طاعة الله ومعرفته مع ما جعل الله تعالى عليه دليلا عقليا أو نقليا في الكتاب والسنة المطهرة، وذهب أبو حنيفة والأشعري إلى أن الإيمان يحصل بالقلب واللسان معا،

(١) بحار الأنوار ج ٦٥ ص ٢٧٧

(٢) الكافي ج ٢ ص ٢٦

وهنـاك فريق ثالث يـرى أن الإيمان عبارة عن الاعتقاد بالقلب فقط، ورأي آخر يقول أن الإيمان هو معرفة الله بالقلب حتى أن من عرف الله ثم جحد بلسـانه ومات قبل أن يقر به فهو مؤمن كامـل الإيمـان، وهو مـردود باطل لقوله تعـالى: «وجحدوا بها واسـتيقنتها أنفسـهم» ولقوله تعالى: «فلما جاءهم ما عرفوا كفـروا به» فأثبت لهم المعرفـة والكفر وعليه فلا يمكن أن يكون المـرء مؤمنـاً وكافـراً في الوقت ذاتـه، وبالمقابـل هنالك من يرى أن الإيمـان هـو الإقرار باللسـان فقط، وهو أيضـاً باطل لقوله تعالى: «قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسـلمنا» ولا شـك في أن أولئك الأعراب صدقوا بألسـنتهم، والمشهور بين الإماميـة أنـه عبارة عن الإقـرار باللسـان، والتصديق با لجنان يعني الإقرار بالشـهادتين، وجميع ما جاء به النبي صلى الله عليه وآله مقرونا بالتصديق والإذعان، وقيل التصديق با لجنان والإقرار باللسان مع انضمام العمل بالأركان إلى ذلك.

ولكـن ماالمراد بالعمل الذي يكون جـزء من الإيمان؟ ا لجواب هـو الإتيـان بكبائـر الطاعات، واجتنـاب كبائر المعاصـي، وهذا الرأي للشـيخ الصدوق والشـيخ المفيد وجملة مـن المتقدمين، وهو المسـتفاد من الأخبار المتكاثرة، فالإيمـان عبارة عن المركب من هـذه الثلاثـة، وهي الإقـرار باللسـان والاعتقـاد با لجنان، والعمـل بالأركان، وبهـذا المضمون جملة من الأخبـار؛ منها أن

أمـير المؤمنين عليه السلام سـئل عـن الإيمـان، فقال:«الإيمـان معرفة بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان»[1].

ومنهـا مـا رواه الشـيخ الصـدوق في الخصال في بـاب الإيمان ثلاثة أشياء وعدة روايات في هذا المعنى فقال:

١- حدثنـا أبـو أحمد محمد بـن جعفر البندار قـال: حدثنا أبـو العبـاس الحمادي قال: حدثنا محمد بـن عمر بن منصور البلخـي بمكـة قـال: «حدثنا أبـو يونس أحمد بـن محمد ابن يزيد بن عبد الله ا لجمحي قال: حدثنا عبد السلام بن صا لح، عن علي بن موسـى، عن أبيه موسـى بن جعفر، عن أبيه جعفر بن محمد، عن أبيه محمد بن علي، عن علي بن الحسـين، عن الحسين بن علي، عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الإيمان معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالأركان».

٢- حدثنـا محمد بن الحسـن بن أحمد بـن الوليد رضي الله عنـه قـال: حدثنـا محمد بـن الحسـن الصفار، عـن أحمد بن محمد بن عيسـى، عـن بكر بن صا لح الـرازي، عن أبي الصلت الهروي قال: «سألت الرضا عليه السلام عن الإيمان فقال: الإيمان عقد بالقلـب [و] لفظ باللسـان [و] عمل با لجوارح، لا يكون الايمان إلا هكذا».

---

(١) نهج البلاغة ج٤ص٥٠

٣- أخبرنا سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي قال: حدثني علي بن -عبد العزيز، ومعاذ بن المثنى قالا: حدثنا عبد السلام بن صالح الهروي قال: «حدثنا علي بن موسى الرضا، عن أبيه موسى، عن أبيه جعفر بن محمد، عن أبيه محمد بن علي، عن أبيه علي بن الحسين، عن أبيه، عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الإيمان معرفة بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان».

٤- حدثنا حمزة بن محمد بن أحمد العلوي رضي الله عنه قال: حدثنا أبو الحسن علي بن محمد البزاز قال: حدثنا أبو أحمد داود بن سليمان الغازي قال: «حدثني علي بن موسى الرضا عليه السلام قال: حدثني أبي موسى بن جعفر قال: حدثني أبي جعفر بن محمد قال: حدثني أبي محمد بن علي الباقر قال: حدثني أبي علي بن الحسين قال: حدثني أبي الحسين بن علي قال: حدثني أبي أمير المؤمنين عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الايمان إقرار باللسان ومعرفة بالقلب وعمل بالأركان».

قال حمزة بن محمد رضي الله عنه وسمعت عبد الرحمن بن أبي حاتم يقول: سمعت أبي يقول: وقد روى هذا الحديث عن أبي الصلت الهروي عبد السلام بن صالح، عن علي بن موسى الرضا عليه السلام بإسناد مثله. قال أبو حاتم: لو قرء هذا الاسناد على مجنون لبرأ[1].

(١) الخصال ص ١٧٨ – ١٧٩

ومختصر القول انقسم الإمامية في معنى الإيمان إلى قسمين؛

القسم الأول يرى أن الإيمان هو الإقرار باللسان والاعتقاد بالجنان، وأما القسم الثاني فيرى أن الإيمان هو الإقرار باللسان والاعتقاد بالجنان والعمل بالأركان، وهذا القسم يرى أن العمل جزء من الإيمان، أما القسم الأول فيرى أن العمل شرط في الإيمان والشرط خارج عن المشروط وغريب عنه، ووجهوا أحاديث المعصومين إلى الفرد الأكمل، أي أن العمل يوجب أن الإيمان المقرون به هو أكمل من غيره فالعمل على هذا الرأي يكون في كمال الإيمان لا في حقيقة الإيمان وفرق بين كمال الشيء وحقيقته.

مراتب الإيمان:

الإيمان صفة وجودية والصفات الوجودية تتفاوت في الشدة والضعف، أو كما يعبر عنه الحكماء بأن هناك تشكيكاً في مراتبه، فقد يشتد إيمان المؤمن وقد يضعف بسبب عوامل خارجية تلقي بثقلها عليه، وهذا المعنى ثابت في القرآن الكريم كما في قوله تعالى شأنه ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (١) وقوله تبارك مجده ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٢)، فالآية من سورة الأنفال تصرح بالزيادة في الهدى والزيادة لابد أن تكون في الدرجات، وهذه الدرجات مراتب، ولكن الآية لم تصرح بها، والذي يمكن تحديده هو أن هنالك درجات ضعيفة في الإيمان- وسيأتي التصريح عنها في الأحاديث الشريفة - حتى أنه لا يبدو منه أي شيء مؤثر في سلوكيات المرء أو يكون مخلوطاً بالسيئات، وهنالك درجات شديدة تعبر عن الاعتقاد الراسخ البنّاء الذي لا يشوبه أي شائبة بل هو خالص نقي وهو أكمل الدرجات والذي يكون فيه نية المرء وفعله خالصاً لوجهه تعالى، وهو الذي يوجهنا إليه إمامنا الجواد عليه السلام في كلامه السالف الذي ابتدأنا به، وفي الروايات ما يؤكد هذا المعنى، قال الإمام الباقر عليه السلام: «الإيمان ثابت في القلب واليقين خطرات، فيمر اليقين بالقلب، فيصير كأنه زبر الحديد ويخرج منه فيصير كأنه خرقة بالية»(٣).

(١) الأنفال ٢
(٢) التوبة ١٢٤
(٣) كشف الغمة ج ٢ ص ٣٤٤

وقال الإمام الصادق عليه السلام في جواب أبي عمرو الزبيري: «الإيمان حالات ودرجات وطبقات ومنازل، فمنه التام المنتهى تمامه، ومنه الناقص البيّن نقصانه، ومنه الراجح الزائد رجحانه، قلت: إن الايمان ليتم وينقص ويزيد؟ قال: نعم، قلت: كيف ذلك؟ قال: لأن الله تبارك وتعالى فرض الايمان على جوارح ابن آدم وقسمه عليها وفرقه فيها فليس من جوارحه جارحة إلا وقد وكلت من الإيمان بغير ما وكلت به أختها... [ثم يفصل الإمام عليه السلام أعمال الجوارح، إلى أن يقول] ولو كان كله واحداً لا زيادة فيه ولا نقصان لم يكن لأحد منهم فضل على الآخر ولاسْتوَت النّعم فيه، ولاسْتوَى الناس وبطل التفضيل، ولكن بتمام الإيمان دخل المؤمنون الجنة، وبالزيادة في الإيمان تفاضل المؤمنون بالدرجات عند الله وبالنقصان دخل المفرطون النار»(١).

وإذا علمنا أن الإيمان مورده القلب لقوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٢) ولقول الإمام الباقر عليه السلام «الإيمان ثابت في القلب» نعلم أن الجحود والكفر موردهما القلب أيضاً لقول الإمام الصادق عليه السلام في آخر الحديث المروي عن أبي عمرو

(١) الكافي ج ٢ - ص ٣٤
(٢) الأنفال٢

الزبيري «وبالنقصان دخل المفرطون النار» ولقوله تعالى شأنه ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[1]، ومنه نعلم أن الإيمان والكفر يكونان في القلب، وزيادة الإيمان تمنع الكفر والجحود وأما زيادتهما فيحجب ويمنع ثبوت الإيمان في القلب.

إن غلبة وسيطرة الإيمان على ساحة القلب يعتمد على التوجه القلبي والامتثال والامتناع والمعرفة التي بها يرفع الشك، فكلما اشتدت هذه العوامل عند المؤمن حاز مرتبة ودرجة، ومن حاز على تماميتها كان مؤمناً كامل الإيمان.

وقد ذُكر البعض أن للإيمان أربعة شؤون[2]:

الأول: شأن في مقام الاعتقاد.

الثاني: شأن في مقام قبول القلب والنفس تلك المعارف.

الثالث: شأن في مقام الحالات والأخلاق والملكات.

الرابع: شأن في مقام العمل.

وكل مرتبة مؤثرة بما بعدها، فإن من لم يعتقد لا يثبت في

---

(١) التوبة ١٢٥

(٢) الأنوار الساطعة في شرح زيارة الجامعة ج٢ ص٦٤

قلبه شيء، ومن يثبت في قلبه شيء لا يسعى لكسب الفضائل، والسعي هو مقام العمل، وعليه فإن العمل متفرع بالحقيقة من هذه المقامات ومعلول لها، فكلما اشتد اعتقاده اشتد عمله، ومن ضعف اعتقاده ضعف عمله، ولبيان أوضح نقول إن الإيمان برنامج حياة كامل، لا مجرد نية تعقد بالقلب، أو كلمة تقال باللسان بلا رصيد حقيقي من العمل الايجابي البنّاء.

عودة إلى كلام الإمام عليه السلام:

وصلنا في الكلام السابق إلى أن العمل متفرع عن الاعتقاد وكلما كان الاعتقاد شديداً كان العمل أشد، والمؤمن الكامل من يعيش لله، ويفدي نفسه لله وهدفه الأوحد وجه الله لا أمر آخر، مستسلم لأمر الله راض بقدره وقضائه، وهذا كله يأتي من اعتقاده بالله، ثم إن الإيمان يبرز بطرق مختلفة منها السلوك العبادي من خلال العمل بالأوامر الإلهية والاجتناب عن النواهي الإلهية وحفظ النفس من الولوج في الشهوات المحرمة أو التي يكون الشبهات مقروناً بها.

روى الشيخ المفيد عن السكوني، عن جعفر، عن أبيه، عن آبائه عليهم السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من أسبغ وضوءه وأحسن صلاته وأدى زكاة ماله وكف غضبه وسجن لسانه واستغفر لذنبه وأدى

النصيحة لأهل بيت نبيه فقد استكمل حقائق الإيمان وأبواب الجنة مفتحة له»(١).

وقد يبرز ويظهر الإيمان في موقف اجتماعي كأن يتكفل المؤمن أخوته المعوزين يدفع عنهم ذل السؤال لا يقصد به إلا وجهه تعالى، وقد يبرز الإيمان بروزاً شديداً وذلك في حالات الإيثار التي مدحها الباري عز وجل: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ۞ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً ۞ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً ۞ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً ۞ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً﴾(٢)، هذا من جانب العطاء والمنع، وأما من جانب الحب والبغض فإنا نستوحي من الأحاديث الشريفة أن الإسلام أعطى أهمية كبيرة لمسألة الحب والبغض التي تعتبر أفضل الأعمال وفي بعض الروايات أكمل الأعمال التي هي علامة على كمال الدين.

إن مسألة الحب والبغض والتي يعبر عنها بالتولي والتبري وبالأخص للرموز والقادة أمر أساسي في تهذيب وتربية النفوس البشرية، لأن كل فرد من أفراد البشرية له ميل

(١) الاختصاص ص ٢٣٣
(٢) الإنسان ٨-١٢

فطري نحو الكمال الذي يعتقده، فترى من اعتقد الكمال في المال اتخذ الثراء وآثاره حلاً لكل ما يعرض من المشاكل، ومن اعتقد أن العلم هو الكمال نادى أن كل الحلول فيه وفي حَمَلَته، وهكذا غيره، وليس هذا الأمر على النحو الفردي بل أنت ترى أن الأمم والشعوب تتخذ أبطالاً وهميين لما لم يجدوا في تأريخهم أبطالاً حقيقيين كي يعوضوا النقص، وذلك لأن الإنسان يحتاج إلى القدوة لأنه مؤثر بالمقتدي إيجاباً وسلباً، فإن كان القدوة من أولياء الله سواء كان نبيا أو وصيا فإن سلوكه سينعكس على روح المقتدي ويدفعه للتخلق بأخلاقه، والقدوة الصالحة من شأنها أن تكون شرطاً أساسياً كي يسلك بالمقتدي طريق الصلاح والهداية في خط الانفتاح على الله، ولهذا ترى أن القرآن أكثرَ من ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام وطرق دعوتهم وصبرهم على هداية الناس، وأما إن كان القدوة من أولياء الشيطان فإن سلوكه منعكس أيضاً في نفوس أتباعه، ولهذا ترى أن كثيراً من الأمم أهلكت بالعذاب الإلهي لاتفاقهم على نصرة ملوكهم ورؤسائهم، فكفروا باتباع كفر أسيادهم.

واستناداً لما ذكرنا نقول أن الميل البشري للقدوة الإنسانية يمكن أن يوجه بصورة صحيحة ويفعل دوره في التربية الخلقية والسلوك الفردي والاجتماعي، وذلك لأن صياغة الشخصية وكيفية السلوك يعتمد على نظرة الإنسان باتخاذ القدوة،

وحياته مرهونة على هذه النظرة وتابعة لها، فالنتيجة تقتضي أن نتخذ المصلحين أولياء الله قدوة لنا، باعتبارهم الموصلين إلى الله جل وعلا، وبهم يُنشر الصلاح الذي يعكس حقيقة الإيمان، ومن خلالهم يتربى الإنسان على الترفع عن الأنانية الشخصية، ويتربى على ما يحبه ويريده الله تعالى ويرضاه، ويهذب نفسه أن يكون غضبها لله لا لمصلحته الخاصة، فلا شك أن هذا الشعور العالي يكون مصداقا جليا على عمق إيمانه ومصداقيته، وقد جاء قول النبي صلى الله عليه وآله يعضد هذه الحقيقة: «لا يحق العبد حقيقة الإيمان حتى يغضب لله، ويرضى لله، فإذا فعل ذلك فقد استحق حقيقة الإيمان»[١]، وعن الإمام الصادق عليه السلام: «لا يبلغ أحدكم حقيقة الإيمان حتى يحب أبعد الخلق منه في الله، ويبغض أقرب الخلق منه في الله»[٢] ويقول أيضا عليه السلام: «إن من حقيقة الإيمان أن تؤثر الحق وإن ضرّك على الباطل وإن نفعك، وأن لا يجوز منطقك علمك»[٣]، إن ترجيح كفة الحق الضار على كفة الباطل النافع ما هي إلا مظهرا من مظاهر قوة الإيمان الراسخ في أعماق النفس المؤمنة التي تحب في الله وتبغض في الله.

(١) ميزان الحكمة ج١ ص١٩٣

(٢) تحف العقول عن آل الرسول ص٣٦٩

(٣) المحاسن ج١ ص٢٠٥

الحديث الرابع

حد السلامة

قال الإمام الوفي محمد بن علي ا لجواد عليه السلام: «وثلاث من كن فيه لم يندم: ترك العجلة، والمشورة، والتوكل عند العزم على الله عز وجل»[١].

إن القوانين الأرضية لا تتمكن من النفوذ إلى البعد المعنوي في الإنسان والذي هو مصدر كل حركاته وانفعالاته، فهي مصممة لتعبئ طاقات الإنسان البدنية بخلاف القوانين والشرائع السماوية، فهي بقوانينها تشمل البعدين في الإنسان، فهي تقنن للجانب المادي فيه القوانين والأحكام التي إن اتخذها منهجاً كانت كافية لتدبير البدن ورفع الأضرار عنه، وهي تربي ا لجانب المعنوي فيه حيث تصبح رؤيته واسعة مستشرفة الآفاق يبصر ما تفضي إليه المقدمات من نتائج.

ثم إن الإسلام أحكم قوانين هذين ا لجانبين حتى لا يتعدى جانب على آخر، لأن تعدي ا لجانب المادي على المعنوي يفسد سعادة الإنسان، وبالعكس إنْ تعدى ا لجانب المعنوي على ا لجانب

(١) كشف الغمة - ابن أبي الفتح الإربلي - ج ٣ ص ١٣٩

المادي يعطي نفس النتائج من الإفساد، وما قلناه له مستند في الكتاب الكريم والسنة المطهرة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[1]، الآية تتكلم عن الرهبانية التي هي نوع من أنواع الزهد، ولو اتبع قوم عيسى وأعطوا هذا المفهوم حقه واستحقاقه لكانت حسنة لهم ولكنهم أفرطوا وزادوا على أنفسهم في تطبيق هذا المفهوم بأن حرموا على أنفسهم الزواج، وانزووا عن مجتمعاتهم وأهملوا رعاية مجتمعاتهم وركنوا في الصوامع والأديرة، وهؤلاء مالوا بجانب الروح على البدن، وهو ما نهى الله جل جلاله عن فعله، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[2]، ففي هذه الآية استفهام عن الذي حرم المأكل والمشرب والملبس والمنكح، ثم أمر المولى جل جلاله النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بإخبار الناس أن هذه الأشياء هي بالأصل للذين آمنوا في الحياة الدنيا، قال

(١) الحديد ٢٧

(٢) الأعراف ٣٢

أمير المؤمنين عليه السلام: «واعلموا يا عباد الله أن المتقين حازوا عاجل الخير وآجله، شاركوا أهل الدنيا في دنياهم، ولم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم، أباحهم الله من الدنيا ما كفاهم به وأغناهم، قال الله عز وجل: قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون، سكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت، وأكلوها بأفضل ما أكلت، شاركوا أهل الدنيا في دنياهم فأكلوا معهم من طيبات ما يأكلون، وشربوا من طيبات ما يشربون، ولبسوا من أفضل ما يلبسون، وسكنوا من أفضل ما يسكنون، وتزوجوا من أفضل ما يتزوجون، وركبوا من أفضل ما يركبون، أصابوا لذة الدنيا مع أهل الدنيا، وهم غدا جيران الله تعالى، يتمنون عليه فيعطيهم ما يتمنون، لا ترد لهم دعوة، ولا ينقص لهم نصيب من اللذة، فإلى هذا يا عباد الله يشتاق إليه من كان له عقل ويعمل له بتقوى الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[1].

وعليه نصل إلى أن الاديان السماوية تنظر في أحكامها للبعدين في الإنسان وحدودهما، ففي بعض أحكامها تلزم أتباعها بالعمل وهو ما يسمى بالوجوب، وقد تمنع وتسمى الحرمة وقد تجيز على نحو الأفضلية وتسمى المندوب، فهذه

(١) الأمالي - الشيخ الطوسي ص ٢٦- ٢٧

الأحكام وغيرها توصيات تعنى بجوانب الإنسان، وفي موضوعنا الحالي – كلام الإمام الجواد عليه السلام – توجيه من أجل بناء سمة نفسية متزنة للشخصية الإسلامية المؤمنة حيث أن العجلة طابع غير مرضي، وهو يفصح عن اضطراب في الشخصية القلقة بخلاف التأني الذي هو صفة من صفات الشخصية المتزنة التي تدير الأمور برفق والتي من خلالها تكون السلامة.

إن السلامة تأتي من خلال إمعان العاقل بالنتائج إذا أراد الإقدام على عمل ما، فيتأمله من خلال مقدماته وشرائطه وعواقبه وآثاره تأملاً عميقاً، حتى يكون على بصيرة من غرضه ومرماه، وقد جاءت التوصيات من الشارع المقدس من كتاب وسنة لتعزز القناعات لهذه السمة لتؤكد الطابع المرضي في السلوك الإنساني، أما لو استعجل الإنسان واندفع في تحصيل المنافع الشخصية لأنه انطلق بأعماله بسبب نظرة سطحية وفوّت على نفسه النظرة العميقة الشاملة في تشخيص خيره الحقيقي ومنفعته الواقعية ضاع عليه وجه الحقيقة واضطرب ميزان الخير والشر عنده، وقد يصل إلى أن يطلب الشر لنفسه بحسبان أنه الخير، وما أعظمها خسارة حين تنقلب الموازين عند الإنسان.

وعليه فإن أفضل طريق لوصول الإنسان إلى السعادة، هو أن يكون في كل خطوة يخطوها وموقف يتخذه على غاية قصوى

من الدقّة، وأن يتجنب العجلة، ويدرس الموقف من جميع الجوانب، ويترك الأحكام المتعجلة الممزوجة بالهوى والرغبة الذاتية بحكم العاطفة، وأن يستعين بما منّ الله عليه من عقل وما تجهز به من حقيقة ظهرت له على يد المصلحين الإلهيين وما ورثه من تجارب شخصية وغيرية.

الآيات والأحاديث التي تذم التسرع وتدعو للتروي:

قال تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ (١).

٢. عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنما أهلك الناس العجلة، ولو أن الناس تثبتوا لم يهلك أحد» (٢).

٣. عن أبي النعمان، عن أبي جعفر قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الأناة من الله، والعجلة من الشيطان» (٣).

---

(١) الأنبياء ٣٧

(٢) المحاسن للبرقي ج١ ص٢١٥

(٣) المحاسن للبرقي ج١ ص٢١٥

٤. عن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام)، عن آبائه (عليهم السلام): «أن رجلا أتى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال: يا رسول الله أوصني، فقال له: فهل أنت مستوص إن أوصيتك؟ حتى قال ذلك ثلاثا في كلها يقول الرجل: نعم يا رسول الله، فقال له رسول الله: فإني أوصيك إذا أنت هممت بأمر فتدبّر عاقبته، فإن يكُ رشدا فأمضهِ، وإن يكُ غيا فانتهِ عنه»[١].

٥. قال الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب (عليه السلام): «لما حضرت الوفاة والدي أقبل يوصي [من ضمن الوصايا] أنهاك عن التسرع بالقول والفعل»[٢].

٦. عن أبي جعفر الثاني (عليه السلام)، عن آبائه (عليهم السلام) قال: «قال أمير المؤمنين (عليه السلام): التدبير قبل العمل يؤمنك من الندم»[٣].

٧. قال أمير المؤمنين (عليه السلام): «روّ تحزم فإذا استوضحت فاجزم»[٤].

---

(١) البحار ج٦٨ ص٣٣٩

(٢) وسائل الشيعة ج٢٧ ص١٦٨

(٣) الأمالي ص٥٣٢

(٤) البحار ج٦٨ ص٣٤٢.. علق المجلسي: بيان «رو» أمر من التروي وهو التفكر قبل العمل، يعنى تفكر فيما تعنيه فإنك إن تتفكر فقد أخذت بالحزم في أمورك، فإذا رويت واستوضح لك الأمر وعواقبه، فاجزم على المضي عليه إن كان فيه نفعك آجلا وعاجلا وانته عنه إن كان فيه مضرتك كذلك.

٨. عن أبان بن تغلب قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: «مع التثبت تكون السلامة، ومع العجلة تكون الندامة، ومن ابتدأ بعمل في غير وقته كان بلوغه في غير حينه»[١].

٩. وقال الإمام ا لجواد (عليه السلام): «اتّئد تصب أو تكد»

هذه الآيات والروايات وغيرها كثير توصي بعدم التعجل لأنها صفة تقترن بعدم النظر في عواقب الأمور مما تجر الشخصية إلى متاعب مختلفة، بخلاف التأني في الأمور الذي يوجب السلامة، وهنالك مسألة قد تلتبس على البعض، حيث يوجد الكثير من الأوامر الصادرة عن المعصوم بالمبادرة الفورية والإسراع بفعل الخير وعدم التأخير فيه، أليس بين هذين القولين اختلاف وتناقض؟!

وللإجابة لرفع هذا التوهم يجب علينا أن نميز بين مفهوم الإسراع الذي يكون بعد معرفة خيرية شيء ما والعمل على انجازه ومفهوم التعجل الذي يطلق على مَن لم يتدبر الشيء ويعرف خيريته أو شريته، فالفارق بين العجلة بصفتها سمة نفسية مرتبطة بانفعال غير محمود في الفرد وبين الإسراع في إنجاز الأعمال الخيرية بصفتها طابعاً سوياً للشخصية المؤمنة.

---

(١) الخصال ص ١٠٠

شبهة «التعجل أمر ذاتي»:

قال بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ كلاماً مفاده أن التعجل صفة ذاتية في الإنسان لا يمكنه التخلص منها لأنه مفطور عليها، وأنها ركّبت في طبيعته البشرية، وجعلها من سجيته وجبلّته الإنسانية، وهذا التفسير يلزم منه أن الإنسان يكون مجبوراً بأفعاله ويلزم منه التكليف بالمحال وهم خلاف ما ورد في الكتاب العزيز، فقد صرّح القرآن بآيات كثيرة ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (١)، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ وإقراره في ذيل الآية المباركة دعاء المؤمنين ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٢)، أليس إن كان التعجل طبعاً ذاتياً في الإنسان وربهم يطلب منهم أن لا يتعجلوا كما في الآية المباركة هو أمر بما لا يطاق وتكليف بما لا يقدر عليه أحد، وقال تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (٣)، وقال جل اسمه: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْساً

(١) البقرة ٢٣٣
(٢) البقرة ٢٨٦
(٣) الأنعام ١٥٢

إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (١) وقال تبارك شأنه: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٢) ومن هؤلاء:

١. نصر بن محمد بن أحمد السمرقندي قال: قوله عز وجل: خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ، أي مستعجلا بالعذاب، وهو النضر بن الحارث، وقال القتبي: خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ أي خلقت العجلة في الإنسان. ويقال: إن آدم عليه السلام استعجل حين خلق (٣).

أحمد بن مصطفى المراغي: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ أي إنه تعالى فطر هذا النوع على العجلة، وجعلها من سجيته وجبلّته، فليس بعجيب من المشركين أن يستعجلوا عذاب الله ونزول نقمته بهم، وقد كان من الحق عليهم أن يتلبّثوا قليلا، فإن الله سينزل بهم من سخطه مثل ما أنزل بالمكذبين قبلهم، ويحلّ بهم من العذاب ما لا قبل لهم بدفعه، وهذا ما أشار إليه بقوله: ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي إن نقمى ستصيبكم لا محالة، فلا تتعجلوا عذابى، واصبروا حتى يأتى وعد الله، إن الله لا يخلف الميعاد، وقد نهى الإنسان عن العجلة مع أنها

(١) الأعراف ٤٢
(٢) المؤمنون ٦٢
(٣) بحرالعلوم، ج٢، ص: ٤٢

ركّبت في طبيعته، من قبل أنه أوتي المقدرة التي يستطيع بها تركها وكف النفس عنها[1].

محمد الأمين الشنقيطي: ﴿خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ﴾ للزجر عن ذلك. كأنه يقول لهم: ليس ببدع منكم أن تستعجلوا. فإنكم مجبولون على ذلك، وهو طبعكم وسجيتكم. ثم وعدهم بأنه سيريهم آياته[2]... ثم قال واعلم أنه لا إشكال في قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ﴾ مع قوله ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ فلا يقال: كيف يقول: إن الإنسان خلق من العجل وجبل عليه، ثم ينهاه عما خلق منه وجبل عليه، لأنه تكليف بمحال!؟ لأنا نقول: نعم هو جُبِل على العجل، ولكن في استطاعته أن يلزم نفسه بالكف عنها، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النفس عَنِ الهوى فَإِنَّ الجنة هِيَ المأوى﴾[3].

هذه نماذج لأقوالهم، ولكن المتدبر بآيات الله يجد أن تفسيرهم لا ينسجم مع التصريح القرآني، بل يخالفه صريحا كما مر علينا من الآيات المباركات، هذا أولا، وثانيا أن أغلب المفسرين ممن ينتمي إلى نفس مدرسة أولئك لا يرضى بهذا القول

(١) تفسير المراغي، ج١٧، ص: ٣٤

(٢) أضواء على تفسير القرآن ج٤ص٢٢٤

(٣) أضواء على تفسير القرآن ج٤ص٢٢٦

ويفسر معنى «عجل» على المبالغة، قال ابن عجيبة أحمد بن محمد: قال تعالى: ﴿خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ﴾، العجل والعجلة مصدران، وهو تقديم الشيء على وقته، والمراد بالإنسان: الجنس، جعل لفرط استعجاله، وقلة صبره، كأنه خلق من العجلة، والعرب تقول لمن يكثر منه الشيء: خلق منه، تقول لمن يكثر منه الكرم: خلق من الكرم[1].

وقال عبد القادر ملا حويش آل غازي: قال تعالى: ﴿خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ﴾ العجلة طلب الشيء قبل أوانه، وهو من مقتضيات الشهوة، فلذلك صارت مذمومة حتى قيل العجلة من الشيطان، والقاعدة الشرعية: من استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه، قال القائل:

لا تعجلن لأمر أنت طالبه

فقلما يدرك المطلوب ذو العجل

فذو التأني مصيب في مقاصده

وذو التعجل لا يخلو من الزلل

فالإنسان لقلة صبره وفرط استعجاله جعل كأنه مخلوق من العجلة، لأنه يكثر منها، والعرب تقول لكثير الكرم خلق من الكرم[2].

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ج٣، ص: ٤٦٣

(٢) بيان المعاني، ج٤، ص: ٣٠٧

وقال صالح بن عاشور: العجل: السرعة، وخلق الإنسان منه استعارة لتمكن هذا الوصف من جبلّة الإنسانية، شبهت شدة ملازمة الوصف بكونه مادة لتكوين موصوفه، لأن ضعف صفة الصبر في الإنسان من مقتضى التفكير في المحبة والكراهية، فإذا فكر العقل في شيء محبوب استعجل حصوله بداعي المحبة، وإذا فكر في شيء مكروه استعجل إزالته بداعي الكراهية، ولا تخلو أحوال الإنسان عن هذين، فلا جرم كان الإنسان عجولا بالطبع فكأنه مخلوق من العجلة، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾، ثم إن أفراد الناس متفاوتون في هذا الاستعجال على حسب تفاوتهم في غور النظر والفكر ولكنهم مع ذلك لا يخلون عنه[1].

أقول: قد ثبت عند أهل الحكمة وغيرهم أن التفاوت لا يكون إلا بالصفات لأنها عارضة على الذات خارجة عنه، ولو كانت صفة التعجل من ذاتياته لما تفاوتت بين الأفراد بالشدة والضعف، حيث تشتد عند البعض وتضعف، ولا توجد عند آخرين كالأنبياء وأوصيائهم.

(١) التحرير والتنوير، ج١٧، ص: ٥١

ثم إن المفسرين وهم يشرحون هذه الآية قالوا أن نعته بالعَجول كما في قوله تعالى ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾[1] أو في الآية محل البحث، هو تفسير لسلوكه في بعض مواقفه وليس تحديداً لخلقه وطبعه وهويته، قال الشيخ محمد جواد مغنية: إن الإسلام يوجه الإنسان إلى الغاية التي يجب أن يكرس حياته من أجلها، فإن انحرف عنها نعته القرآن بأقبح الأوصاف كالظالم والخاسر والكافر وا لجاهل والطاغي والكنود، وما إلى ذلك من الرذائل.

إن هذه الأوصاف ليست تحديدا لطبيعة الإنسان وماهيته، وإنما هي تفسير لسلوكه في بعض مواقفه، ويدلنا على ذلك أن كل صفة ذكرها القرآن مقرونة بحادثة من الحوادث، فلقد وصف الإنسان باليأس إذا نزلت به نازلة، وبالفرح والبطر إذا استغنى، وبا لجزع والهلع إذا مسه الضر، ونحو ذلك، وقد خفيت هذه الحقيقة على كثيرين، وظنوا أن هذه الأوصاف وردت في القرآن تحديدا لحقيقة الإنسان وماهيته وأخذوا ينعتونه بها في غير المناسبات التي جاءت في كتاب اللّه.. ولو صدق ظنهم لما جاز أن يؤاخذ اللّه على الكفر والطغيان، وكان قوله: «وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ» تكريما للكفر والظلم.. تعالى اللّه عن ذلك علوا كبيرا[2].

(١) الإسراء ١١

(٢) تفسير الكاشف، ج٤، ص: ٢١

وأخيراً نذكر رأيين لمفسرَين كبيرَين في معنى الآية:

قال الشيخ الطبرسي: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ قيل فيه قولان «أحدهما» أن المعني بالإنسان آدم، ثم إنه قيل في عجل ثلاث تأويلات، منها أنه خلق بعد خلق كل شيء آخر نهار يوم ا لجمعة وهو آخر أيام السنة على سرعة معاجلا به غروب الشمس، عن مجاهد، ومنها أن معناه في سرعة من خلقه لأنه لم يخلقه من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة كما خلق غيره وإنما أنشأه إنشاءً فكأنه سبحانه نبه بذلك على الآية العجيبة في خلقه ومنها أن آدم عليه السلام لما خلق وجعلت الروح في أكثر جسده وثب عجلان مبادرا إلى ثمارا لجنة وقيل همّ بالوثوب، فهذا معنى قوله ﴿مِنْ عَجَلٍ﴾ عن ابن عباس والسدي وروي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام.

والقول الثاني أن المعني بالإنسان الناس كلهم، ثم اختلف في معناه على وجوه: «أحدها» أن معناه خلق الإنسان عجولا أي خلق على حب العجلة في أمره، عن قتادة وأبي مسلم وا لجبائي قال: يعني أنه يستعجل في كل شيء يشتهيه، وللعرب عادة في استعمالهم هذا اللفظ عند المبالغة يقولون لمن يصفونه بكثرة النوم ما خلق إلا من نوم، وبكثرة وقوع الشر منه ما خلق إلا من شر، ومنه قول الخنساء في وصف البقرة: " فإنما هي إقبال وإدبار."

«وثانيها» : أنه من المقلوب، والمعنى خُلقت العجلة من الإنسان، عن أبي عبيدة وقطرب، وهذا ضعيف لأنه مع حمل كلامه تعالى على القلب يحتاج إلى تأويل فلا فائدة في القلب، «وثالثها» أن العجل هو الطين، عن أبي عبيدة وجماعة واستشهدوا بقول الشاعر

والنبع ينبت بين الصخر ضاحية

والنخل تنبت بين الماء والعجل

ورواه ثعلب " والنبع في الصخرة الصماء منبته" فعلى هذا يكون كقوله وبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ.

«ورابعها» أن معناه خلق الإنسان من تعجيل من الأمر لأنه تعالى قال إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ عن أبي الحسن الأخفش[١].

قال السيد الطباطبائي: قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ كان المشركون على كفرهم بالدعوة النبوية يستهزؤون بالنبي صلى الله عليه وآله كلما رأوه، وهو زيادة في الكفر والعتوّ، والاستهزاء بشيء إنما يكون بالبناء على كونه هزلا غير جد فيقابل الهزل با لهزل، لكنه تعالى أخذ استهزاءهم هذا

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن ج٧ ص٧٧-٧٨

أخذ جد غير هزل، فكان الاستهزاء بعد الكفر تعرضا للعذاب الإلهي وهو الاستعجال بالعذاب، فإنهم لا يقنعون بما جاءتهم من الآيات وهم في عافية ويطلبون آيات تجازيهم بما صنعوا، ولذلك عد سبحانه استهزاءهم بعد الكفر استعجالا برؤية الآيات وهي الآيات الملازمة للعذاب وأخبرهم أنه سيريهم إياها، فقوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ كناية عن بلوغ الإنسان في العجل كأنه خلق من عجل ولا يعرف سواه، نظير ما يقال: فلان خير كله أو شر كله وخلق من خير أو من شر وهو أبلغ من قولنا، ما أعجله وما أشد استعجاله، والكلام وارد مورد التعجب. وفيه استهانة بأمرهم وأنه لا يعجل بعذابهم لأنهم لا يفوتونه[1].

٢. أين هذا مما قاله أصحاب المنهج الأول المؤدي إلى الجبر، والمتتبع يجد فرقاً شاسعاً بين ما يذهب إليه جل المفسرين عن هذا الرأي، فالمتحصل أن التعجل أمر عارض على الإنسان كما بيّنا في ثنايا البحث ويمكن مع العمل على تهذيب النفس وترويضها زواله عنها حتى أنه قد يزول نهائياً منها.

(١) الميزان في تفسير القرآن، ج١٤، ص: ٢٨٩

وأخيراً نختم كلامنا بما وصى به أمير المؤمنين عليه السلام لمالك الأشتر في عهده له: «إيّاك والعجلة بالأمور قبل أوانها. أو التسقّط فيها عند إمكانها. أو اللّجاجة فيها إذا تنكّرت، أو الوهن عنها إذا استوضحت، فضع كلّ أمر موضعه، وأوقع كلّ أمر موقعه»[1].

المشورة:

وهو العنصر الثاني من عناصر السلامة، فإن أكمل الخلق وأعظمهم عقلاً نبينا الأكرم محمد صلى الله عليه وآله، ورغم ما كان يملكه من قدرات عقلية -فضلاً عن الوحي الإلهي- فقد كان يستشير أصحابه في أمور المسلمين العامة التي تتعلق بتنفيذ القوانين والأحكام الإلهية، ويعطي لآراء المشيرين أهمية خاصة، وهو يدلنا بذلك على أن الإنسان مهما كان قويا في فكره وبعيدا في نظره، إلا أنه قد ينظر للأمر من زاوية واحدة، وعندها ستختفي عنه الزوايا والأبعاد الأخرى، وكان الأئمة يسلكون نفس المنهج فقد قال الحسن بن ا لجهم: كنا عند الرضا عليه السلام فذكرناه أباه، فقال[عليه السلام]: «كان عقله لا توازي به العقول وربما شاور الاسود من سودانه، فقيل له: تشاور مثل هذا؟ فقال: إن

(١) نهج البلاغة ج٣ ص١٠٩

الله تبارك وتعالى ربما فتح على لسانه، قال: فكانوا ربما أشاروا عليه بالشئ فيعمل به في الضيعة والبستان»[1].

وهنالك بعد آخر فإن من أسباب تماسك الأمة إن إدلائهم بآرائهم يشعرهم بالمسؤولية في تطبيق ما شاركوا فيه والدفاع وعدم الانخذال والانهزام أو الاتّكال وعدم المبالاة فيما يعرض على الأمة، وذلك لأن المشاورة هي دعوة عملية للوحدة، وهي دعوة ملزمة من جانب الوجود الذاتي للإنسان في المساهمة في الدفاع والبناء للأمة، وهي تمثل حد السلامة في حركة الفرد المسلم سواء كان قائداً أو من الرعية.

أن المشورة ما هي إلا تقويم العقول للعقول والتجارب للتجارب، فإن تراكم الخبرات يؤدي إلى تقليل العيوب والنواقص وضعف احتمال الخطأ في النتائج، وفيه دلالة واضحة على شدة الحرص وفرط التدبر والاهتمام لما سيكون، ونحن حينما نتحرى التأريخ نرى أن كثيراً من الأقوام البشرية قد حل بهم البوار، وتمزقوا شر ممزق نتيجة الاستبداد بالرأي، وكم رأينا في التأريخ حكاماً، عرّضوا شعوبهم لمصائب أليمة وويلات، نتيجةً لضعف رؤاهم وكم يوجد من أمراء وقيادات عسكرية متعنتة، عرّضوا حياة جنودهم للخطر الفادح، بسبب استبدادهم بالرأي وعدم المشورة، ورد عن الرسول الأكرم محمد

(١) مكارم الأخلاق ص٣١٩

صلى الله عليه وآله قال: «ما من رجل يشاور أحدا إلّا هدي إلى الرشد».

ولكننا عندما نقرأ سيرة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله نراه يشاور أهل الرأي فيما يتعلّق بالحرب، ويشاور وجوه الناس فيما يتعلق بمصالحهم، ويشاور كل ذي شأن بما عنده فيما يتعلّق بمصالح البلاد وعمارتها، وهنا لا بد من التنبيه إلى مسألة مهمة، وهي أن النبي صلى الله عليه وآله كان يستشير الناس فيما يعرض لهم وكما قلنا سابقاً في أمور المسلمين العامة التي تتعلق بتنفيذ القوانين والأحكام الإلهية، لا أنه كان يستشير في الأحكام لأنها منزلة من الله، فدين الله لا يصاب بالعقول، لأن المسائل الشرعية والدينية لا يمكن للعقول إدراكها وفهمها أو معرفة علة وجوبها على العباد إلا بواسطة المشرع نفسه، ولكن البعض أخطأ وأعطى للمشورة ما ليس لها، قال ابن العربي محمد بن عبد الله بن أبو بكر: المسألة الرابعة- مدح اللّه المشاور في الأمور، ومدح القوم الذين يمتثلون ذلك، وقد كان النبي صلّى اللّه عليه وسلم يشاور أصحابه في الأمور المتعلقة بمصالح الحروب، وذلك في الآثار كثير، ولم يشاورهم في الأحكام، لأنها منزّلة من عند اللّه على جميع الأقسام: من الفرض، والندب، والمكروه، والمباح، والحرام. فأما الصحابة بعد استئثار اللّه به علينا فكانوا يتشاورون في الأحكام، ويستنبطونها من الكتاب والسنة، وإنّ أول ما تشاور فيه الصحابة.. الخلافة، فإنّ النبي صلّى اللّه عليه وسلم لم ينصّ عليها حتى كان فيها بين أبى

بكر والأنصار ما سبق بيانه، وقال عمر: نرضى لدنيانا من رضيه رسول الله صلّى الله عليه و[آله] وسلم لديننا، وتشاوروا في أمر الردّة، فاستقرّ رأي أبي بكر على القتال. وتشاوروا في الجدّ وميراثه، وفي حدّ الخمر وعدده على الوجوه المذكورة في كتب الفقه[1].

أقول: في كلام ابن العربي غرابة وانحراف عن الحقيقة فهو يقول «ولم يشاورهم في الأحكام» ثم يقول فكانوا «يتشاورن في الأحكام» ويقرّ لهم هذا الفعل لهم كأنه من أمور الدنيا وليس من أحكام الشرع الحنيف كميراث الجد وحد الخمر وعدده على حسب مثاله، أو تغافله عن أهم المسائل الدينية والتي تعد من أصول الدين أو على الأقل إن لم يعتبرها البعض أصلاً من أصول الدين فهي من أهم المسائل الدينية عند المسلمين، فهذه المطاطية في التعاطي مع هذا المفهوم الإسلامي سعة وضيقاً مما جلب الويلات على المسلمين من وفاة النبي صلى الله عليه وآله إلى يومنا هذا.

(١) أحكام القرآن، ج٤، ص:١٦٦٨

من نستشير؟

لم يترك القادة الهداة مسألة المشورة أمراً نظرياً نقرأه في كتب الأخلاق والتربية نعرف آثاره ولذته بل أرادوا منا تطبيق هذا المفهوم عملياً في سلوكنا وحتى لا نخطئ في التطبيق أعلمونا بمن نتصل ونستشير، فإن من رجاحة العقل.. الإصغاء والأخذ بقول المشير، ومن سفاهة العقل عدم الإصغاء وهي صفة الجاهل الذي تأخذه الحمية ظناً منه أن المشير يتتبع عيوبه ويكشفها، وقد فاته أن انكشاف العيوب مقدمة لإصلاحها، ولاختصار الكلام ننقل هذه الرواية لمعرفة من نستشير، عن الحلبي، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن المشورة لا تكون إلا بحدودها الأربعة، فمن عرفها بحدودها وإلا كانت مضرتها على المستشير أكثر من منفعتها، فأولها أن يكون الذي تشاوره عاقلا، والثاني أن يكون حرا متدينا، والثالث أن يكون صديقا مواخيا، والرابع أن تطلعه على سرك فيكون علمه به كعلمك ثم يسر ذلك ويكتمه، فإنه إذا كان عاقلا انتفعت بمشورته، وإذا كان حرا متدينا أجهد نفسه في النصيحة، وإذا كان صديقا مواخيا كتم سرّك إذا أطلعته عليه، فإذا أطلعته على سرّك فكان علمه كعلمك تمت المشورة وكملت النصيحة»[1].

(١) المحاسن ج٢ ص٦٠٢

وهنـاك الكثـير من الروايـات الواردة في نفـس المضمون نذكر منها:

١- عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام في كلام له: «استشيروا في أمركم الذين يخشون ربهم»[١].

٢ - وعـن علـي عليه السلام في كلام لـه: «شـاور في حديثـك الذيـن يخافون الله»[٢].

٣ - قال أبو عبد الله عليه السلام: «ما يمنع أحدكم إذا ورد عليه ما لا قِبَـل له به أن يستشـير رجلاً عاقلاً له ديـن وورع» ثم قال أبو عبـد الله عليه السلام:« أما إنه إذا فعل ذلك لم يخذله الله، بل يرفعه الله، ورماه بخير الأمور وأقربها إلى الله»[٣].

٤- عـن أبي الحسـن الرضـا عليه السلام عن آبائه عن علـي عليه السلام قال: «قـال رسـول الله صلى الله عليه وآله: يا علـي لا تشـاورنّ جباناً فإنـه يضيّق عليك المخرج، ولا تشاورنّ بخيلاً، فإنه يقصر بك عن غايتك، ولا تشـاورنّ حريصـاً فإنه يزيّـن لك شـرّها، واعلم أن ا لجبن والبخل والحرص غريزة يجمعها سوء الظن»[٤].

(١) المحاسن ج٢ ص٦٠١

(٢) وسائل الشيعة ج ٨ ص ٤٢٦

(٣) وسائل الشيعة ج١٢ ص٤٢

(٤) من لا يحضره الفقيه ج٤ ص٤٠٩

٥-عـن ابن مسـكان، عن سـليمان بـن خالد قـال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «استشـر العاقل مـن الرجال الورع، فإنه لا يأمـر إلا بخير، وإياك والخلاف فـإن مخالفة الورع العاقل مفسدة في الدين والدنيا»[١].

التوكل عند العزم على الله عز وجل:

إن الحد الثالث من حدود السلامة هو التوكل الذي هو صفة معلولة للإيمان، وهي حالة فاضلة للقلب، توجب توكيل العبد ربـه في جميـع الأمور لاعتقاده بأن كل ما في الوجود تابع لأمره جـل وعلا، والتوكل يوجب الانقطاع عما سـوى الله لأنه القادر علـى جميع المقـدورات، ولأنـه الحكيم الذي يضع كل شـيء في مكانـه ويضـع كل ما يصلح للعبد ويرفع عنه الصعب ويسـهله ويقـرب البعيـد، إن التـوكل هو ا لجـذوة والقبس الـذي يحرق اليأس في الإنسـان، فالإنسـان وُهِب اسـتعداد عـال في طبيعته أهّلتـه لأن يكون محل الرسـالة السـماوية ويصيـح خليفة في الأرض وقائداً، وهو إن استسـلم لليأس أصبح مخلوقا ضعيفا، وخـارت قواه واسـتبدل مكانه الذي مكنه الله فيـه، والقرآن قد

(١) وسائل الشيعة ج ٨ ص ٤٢٦

دعا في كثير من الآيات إلى هذا المعنى السامي، ودفع أتباعه إلى التزود منه في مواجهة الحياة، ولم يقف الوصف والتحديد على القرآن بل ما جاء في السنة المعصومة كثير جداً، والمتتبع للأحاديث الشريفة يجد التفصيل في بيان معنى التوكل وحدوده وكيفيته وآثاره ولو أردنا استقصاء ما ورد فيه لخرجنا عن المقصود، ولا بأس هنا أن نذكر روايات عدّة في مجال التوكّل وحده وآثاره:

١. عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «سألت جبرئيل: ما هو التوكل؟ قال: العلم بأن المخلوق لا يضر ولا ينفع، ولا يعطي ولا يمنع، واستعمال اليأس من الخلق فإذا كان العبد كذلك لم يعمل لأحد سوى اللّه ولم يطمع في أحد سوى اللّه فهذا هو التوكل»[١].

٢. عن السكوني، عن أبي عبد الله، عن أبيه عليه السلام قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: الإيمان له أركان أربعة: التوكل على الله، وتفويض الامر إلى الله، والرضا بقضاء الله، والتسليم لأمر الله عز وجل»[٢].

(١) معاني الأخبار ص٢٦١
(٢) الكافي ج ٢ ص ٤٧

٣. عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إن الغنا والعز يجولان، فإذا ظفرا بموضع التوكل أوطنا»[١].

٤. عن علي بن سويد، عن أبي الحسن الأول عليه السلام قال: سألته: عن قول الله عز وجل: « ومن يتوكل على الله فهو حسبه» فقال: «التوكل على الله درجات منها أن تتوكل على الله في أمورك كلها، فما فعل بك كنت عنه راضيا، تعلم أنه لا يألوك خيرا وفضلا وتعلم أن الحكم في ذلك له، فتوكل على الله بتفويض ذلك إليه وثق به فيها وفي غيرها»[٢].

٥. عن الحسن بن ا لجهم، قال: سألت الرضا عليه السلام فقلت له: جعلت فداك، ما حد التوكل؟ فقال لي: «أن لا تخاف مع الله أحدا»[٣].

(١) الكافي ج٢ ص٦٥
(٢) الكافي ج ٢ - ص ٦٥
(٣) الأمالي للصدوق ص ٣١١

الحديث الخامس

سبيل الرضوان

قال الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام: «وثلاث يبلغن بالعبد رضوان الله: كثرة الاستغفار، وخفض الجانب، وكثرة الصدقة»[1].

يتطلب الوصول إلى درجة العبودية قدراً كبيراً من الإخلاص والعمل، وهذه الأفعال الباطنية والظاهرية تأتي بعد ثبوت المعرفة الصحيحة لله سبحانه وتعالى ورسوخ الاعتقاد رسوخاً لا يمكن أن يخدشه ويهزه وهم أو وسوسة شيطان هذا أولاً، والاعتراف بحقوقه علينا ثانياً، ثم إن البشر مراتب متفاوتة في المعرفة، فيهم من صفا عقله وقلبه صفاءً تاماً كاملاً فأفاض الله عليه وجعله هادياً ومرشداً، ومنهم من هو دون هذه الرتبة فيحتاج في معرفة الباري عز وجل «إلى معلم» فإن البعض من أفراد هذه المرتبة من يُعرّف الله جل وعلا معرفة ناقصة مشوهة حيث يعتقد أن لله ما لهذه الموجودات من أبعاد ثلاثة «جسم» أو أن له حدود عقلية، أو يجري عليه صفة المخلوقين من التوالد أو التحيز أو غيرها من الصفات الناقصة، وهذه

(١) كشف الغمة في معرفة الأئمة ج٣ ص١٤١

المعرفة لا تصح لأنها خلاف الواقع قال تعالى مخبراً عن ذاته ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ والأرض مملوءة من أفراد هذه المرتبة، وحق علينا أن نصفهم بما وصفهم الله سبحانه وتعالى قال تعالى ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾، ثم إنا في هذا التقسيم لا نذكر من عرف الله على قدر ما، بَيْد أنه ظلم نفسه فأعطاها حق التصرف وحق استثمار وجوده في هذه الدنيا على وفق هواه، وما نريد قوله أنه يوجد هناك نوعان من البشر أحدهم يوحى إليه من ربه وهذا النوع فيه درجات مختلفة كما أخبرنا القرآن ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ وذلك بحسب استعدادهم، فكان الأنبياء مراتب حسب هذا التصريح القرآني ويقيناً أن أفضلهم درجة وأعظمهم درجة رسولنا الأعظم محمد صلى الله عليه وآله، وأما النوع الثاني وهم عامة الناس الذين يتلقون الأوامر الإلهية من خلال النوع الأول مباشرة أو من خلال أوصيائهم الذين ثبت النص فيهم، وعلى هذا التقسيم أي تقسيم البشرية في تلقي الوحي مباشرة بأي صورة من الصور التالية: سواء كان إلقاء المعنى في قلب النبي أو نفثه في روعه بصورة يحس بأنه تلقاه من الله تعالى، أو تكليم النبي من وراء حجاب، كما نادى الله موسى من وراء الشجرة وسمع نداءه، أو ما يفهمه المتدين عادة من لفظة الإيحاء حين يلقي ملك الوحي المرسل من الله إلى نبي من الأنبياء ما كلف

إلقاؤه إليه، وقد أشير إلى هذه الصور الثلاث في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾، أو في تلقي الوحي من خلال الأنبياء.

فأن الإنسان من النوع الثاني يحتاج في الترقي في مراتب العبودية إلى معلم ومرشد يأخذ بيده فيرشده إلى الغاية القصوى وهي رضوان الله تعالى التي أختلف المفسرون في معرفة هذه الرتبة حيث ذهب بعض المفسرين إلى أن رضوان الله هو عناية خاصة غير محدودة بأي حد من النعم المعنوية.

وقال آخر أن الجزاء الأخروي نوعان أحدهما جسماني هي الجنات التي تجري فيها الأنهار والأزواج المطهرة، والثاني العقل الروحاني الذي هو من أعظم اللذات وهو رضوان من الله تعالى الذي لا يتصور فوقه لذة، ورأي آخر يقول أن رضوان الله هو أكبر من الدنيا والآخرة مجتمعتين، وفوق ذلك كله فرضوان الله يفوق كل نعيم، ويزاد على النعم الذي ذكرت بل هو أكبر منها وأعلى، وذهب غير هذه الآراء رأي يقول أن رضوان الله يقابل كل الجنات وما فيها من كافة الشهيات تدليلاً على أن قليل من رضوانه خير من كثير من سائر الجنات، فأن جنة الرضوان هي الأصل كما أن الروح هو الأصل في كيان الإنسان

وا لجسم فرعه، إلى غير هذه الوجوه التي فسرها العلماء، فإذن رضوان لله تعالى هي الغاية القصوى لكل ذي لب سواء فسرنا الرضوان على الرأي الأول أو الثاني أو أي رأي من الآراء الباقية، وهو أعلى مراتب اللذائد الروحانية فضلاً عن غيرها وعليه لا بد للإنسان من السعي إليها فهي الخير الذي لا يتصور خيراً أعظم منه، فالوصول إلى رضوان الله تعالى شأنه يكون بالمقومات الثلاث التي ذكرها إمامنا محمد بن علي الجواد عليه السلام ولنأخذ كل مقوم على حدة:

المقوم الأول: كثرة الاستغفار

الاستغفار من وسائل التربية المهمة التي تؤثر في سلوك الفرد والتي يريد الإسلام من أتباعه أن يمارسوه بوعي، فالذي يرتكب المعصية أو يهم بها ولم يرتكبها أو يجول بخاطره فعل المعصية عليه أن يطلب الستر والمغفرة وهذا مستوى أولي لطلب المغفرة، وهناك مستوى آخر لا يطلب فيها العبد المغفرة من فعل السيئات أو من الهمّ بها، وإنما قد يستغفر الإنسان شكراً عما أنعم الله عليه من العافية والرزق، وهذا الاستغفار نوع من العبادة، ومستوى آخر يكون الاستغفار فيه من تواضع العبد لمقام الربوبية لأن طلب الغفران يلزم منه

الاعتراف بمقام الربوبية، ومستوى آخر وهو طلب المغفرة من الله جل وعلا لاعتقاد العبد المؤمن بعدم أيفاء الباري عز وجل استحقاقه من الشكر، ثم أن الاستغفار منزلة عظيمة لا تكون إلا بمقدمات كما ذكرها الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام حين استغفر رجل أمامه فقال عليه السلام: «ثكلتك أمك أتدري ما الاستغفار؟ إن الاستغفار درجة العليين وهو اسم واقع على ستة معان: أولها الندم على ما مضى، الثاني: العزم على ترك العود إليه أبدا، الثالث: أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله سبحانة أملس ليس عليك تبعة، الرابع: أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها فتؤدي حقها، الخامس: أن تعمد إلى اللحم الذى نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى يلصق الجلد باللحم وينشأ بينهما لحم جديد، السادس: أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية»[1].

هذه هي مقدمات الاستغفار لمن أراد أن يعود إلى ساحة الكرامة الإلهية ويفوز بالسعادة الأبدية ويبلغ محل الرضوان، على أن للاستغفار آثار آخرى منها: صلاح المجتمع والحياة الطيبة، قال تعالى حكاية عن نوح عليه السلام وهو يخاطب قومه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾.

(١) الكافي ج٢ ص٤٣١

ومن آثاره الأخرى رفع العذاب، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ومنها حب الله للعبد ودعاء الملائكة لهم بإدخالهم الجنة لهم الجنة لهم ولآبائهم وذرياتهم وتبديل سيئاتهم حسنات، روى الشيخ الكليني عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن بعض أصحابنا رفعه قال: «إن الله عز وجل أعطى التائبين ثلاث خصال لو أعطى خصلة منها جميع أهل السماوات والأرض لنجوا بها، قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾، فمن أحبه الله لم يعذبه، وقوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ، وقوله عز وجل: وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ۝ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1].

(١) الكافي ج ٢ ص ٤٣٢ - ٤٣٣

المقوم الثاني: خفض الجانب

خفض الجانب كناية التواضع والرفق، على أن الرفق هو اليسر في الأمور والسهولة في التوصل إليها، وخلافه العنف وهو التشديد في التوصل إلى المطلوب، وأصل الرفق في اللغة النفع ومنه يقال أرفق فلان فلانا إذا مكنه مما يرتفق به، ومرافق البيت المواضع التي ينتفع بها زيادة على ما لا بد منه، ورفيق الرجل في السفر يسمى بذلك لانتفاعه بصحبته وليس هو على معنى الرفق واللطف ويجوز أن يقال سمي رفيقا لأنه يرافقه في السير أي يسير إلى جانبه فيلي مرفقه.[1]

بعد أن يعيش الفرد المؤمن في نفسه الحس الاجتماعي، ويتعامل مع محيطه وفق ما أراده الله تعالى والتي بها يكون اعتدال شخصيته وتكون متزنة في علاقاتها الاجتماعية، ثم إنه يخرج من النطاق الفردي إلى دائرة أوسع ليصبح في دائرة المجتمع الاسلامي الكبير، وهذه الدائرة خاضعة لمنهاج دقيق من الصياغة والإعداد، وفي هذا المنهج تتسع المسؤولية لتشمل المؤمن كفرد والمؤمنين كجماعة بشرية، وذلك في علاقات متبادلة فيما بينهم، تسير بالمجتمع كله نحو التكامل الاجتماعي المراد للعباد، ولكي يحقق هذا الغرض الكبير، سعى الى تعبئة الفرد

(١) الفروق اللغوية ص٢٥٩

المؤمن بمشاعر الجماعة، ولكن دون أن يخلق عنده ارتباكاً في طريقة التعامل، فهو كفرد عليه واجبات اجتماعية محددة لا يمكن أن تنجز إلا بعمل فردي من قبيل حسن المعاشرة وخفض الجانب ولينه والرأفة وترك العنف والجفاء في الأفعال والأقوال مع الخلق في جميع الأحوال، يريد منه أن يكون متواضعاً، محباً، سهلاً ورحيماً في دائرة علاقاته.

إن الله يريد للمؤمن أن ينفتح على إخوانه لتكوين قاعدة محورها الأساسي الإيمان، باعتبار أن الإيمان قيمة ترفع الفرد إلى أعلى درجات السلم في المجتمع الإنساني، فهذا الاعتبار يُقيّم فيه الأفراد بعيداً عن كل اعتبارات المال والجاه والسلطة، وأراد من المؤمنين إمداد أخيهم، لأن هذا الموقف هو الذي يحقق القوة لحركة الإيمان، حيث يشعر المؤمن بالمعنى العميق لقيمة الأخوة الإيمانية، وبهذه القوة يتحدى امتيازات المجتمع المنحرف عن القيّم الحقة، لأنه ينظر ويستشعر وقوف المؤمنين إلى جانبه لا باعتباره صاحب مال أو جاه أو سلطة بل باعتباره مؤمناً معتقداً بحقانية الدين الحنيف فقط، أما عند فقدان هذا الامتياز فسيكون الأمر بخلاف ذلك فيدب الضعف في كيان المجتمع الإيماني وتنحلّ عراه، ونقرأ في كتب التأريخ والسير مواقف جليلة للنبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام نأخذ منها دروساً بليغة وعِبَراً عظيمة في لين الجانب وسعة

الصدر والصبر على ما يصدر من الناس الذين حولهم، فقد كانت طريقة تعاملهم مع الناس تكسبهم الناس إليهم بشكل سريع، وإن كان بعض الناس يميل إلى أن يضفي على مثل هذه الأمور ثوب الإعجاز دائما، إلا أنه ليس كذلك، فلو اتبعنا سنتهم وطريقتهم لاستطعنا بسرعة أن ندرك في الناس عظيم أثرهم، ونفوذهم إلى أعماق قلوبهم، وقد خاطب القرآن الكريم النبي محمدا صلى الله عليه وآله صراحة فقال له: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾.

نماذج من مواقفهم:

١-عن الإمام موسى بن جعفر، عن أبيه، عن آبائه عليهم السلام، عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «إن يهوديا كان له على رسول الله صلى الله عليه وآله دنانير فتقاضاه، فقال له: يا يهودي، ما عندي ما أعطيك، قال: فإني لا أفارقك - يا محمد - حتى تقضيني. فقال صلى الله عليه وآله: إذن أجلس معك، فجلس صلى الله عليه وآله معه حتى صلى في ذلك الموضع الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة والغداة.

وكان أصحاب رسول الله يتهددونه ويتواعدونه، فنظر رسول الله صلى الله عليه وآله إليهم فقال: ما الذي تصنعون به؟ فقالوا: يا رسول

الله، يهودي يحبسك! فقال صلى الله عليه وآله: لم يبعثني ربي عز وجل بأن أظلم معاهدا ولا غيره. فلما علا النهار قال اليهودي: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، وشطر مالي في سبيل الله، أما والله ما فعلت بك الذي فعلت إلا لأنظر إلى نعتك في التوراة، فإني قرأت نعتك في التوراة: محمد بن عبد الله، مولده بمكة، ومهاجره بطيبة، وليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب، ولا متزين بالفحش ولا قول الخنا، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، وهذا مالي فاحكم فيه بما أنزل الله، وكان اليهودي كثير المال»[1].

٢- قال أبو محمد العسكري عليه السلام: «حضرت امرأة عند الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام، فقالت: إن لي والدة ضعيفة، وقد لبس عليها في أمر صلاتها شيء، وقد بعثتني إليك أسألك، فأجابتها فاطمة عليها السلام عن ذلك، فثنّت فأجابت، ثم ثلّثت إلى أن عشّرت فأجابت، ثم خجلت من الكثرة فقالت: لا أشق عليك يا ابنة رسول الله، قالت فاطمة عليها السلام: هاتي وسلي عما بدا لك، أرأيت من اكتُرِيَ يوما يصعد إلى سطح بحمل ثقيل وكِراه مائة ألف دينار، يثقل عليه؟ فقالت: لا، فقالت: اكتريت أنا لكل مسألة بأكثر من ملء ما بين الثرى إلى العرش لؤلؤا، فأحرى أن لا يثقل عليّ، سمعت أبي صلى الله عليه وآله يقول: إن علماء

(١) الأمالي الشيخ الصدوق ص ٥٥١ - ٥٥٢

شيعتنا يحشرون فيخلع عليهم من خلع الكرامات، على كثرة علومهم، وجدهم في إرشاد عباد الله، حتى يخلع على الواحد منهم ألف ألف حلة من نور، ثم ينادي منادي ربنا عز وجل: أيها الكافلون لأيتام آل محمد عليه السلام، الناعشون لهم عند انقطاعهم عن آبائهم الذين هم أئمتهم، هؤلاء تلامذتكم والأيتام الذين كفلتموهم ونعشتموهم، فاخلعوا عليهم خلع العلوم في الدنيا، فيخلعون على كل واحد من أولئك الأيتام، على قدر ما أخذوا عنهم من العلوم... إلى آخره[1].

٣- عن محمد بن سليمان عن أبيه قال: «كان رجل من أهل الشام يختلف على أبي جعفر عليه السلام وكان مركزه بالمدينة، يختلف إلى مجلس أبي جعفر يقول له: يا محمد ألا ترى أنّي إنّما أغشى مجلسك حياء منك ولا أقول أنّ أحداً في الأرض أبغض إليَّ منكم أهل البيت، وأعلم أنّ طاعة الله وطاعة رسوله وطاعة أمير المؤمنين في بغضكم ولكن أراك رجلاً فصيحاً لك أدب وحسن لفظ، فإنّما اختلافي إليك لحسن أدبك.

وكان أبو جعفر عليه السلام يقول له خيراً ويقول: لن تخفى على الله خافية، فلم يلبث الشامي إلاّ قليلاً حتى مرض واشتدّ وجعه، فلمّا ثقل دعا وليه وقال له: إذا أنت مددت عليَّ الثوب فأت

(١) مستدرك الوسائل ج ١٧ ص ٣١٧ - ٣١٨

محمد بن علي عليه السلام وسله أن يصلي عليَّ واعلمه إني أنا الذي أمرتك بذلك.

قال: فلما أن كان في نصف الليل ظنوا أنه قد برد وسجوه، فلما أن أصبح الناس خرج وليه إلى المسجد، فلمّا أن صلّى محمد بن علي عليه السلام وتورّك وكان إذا صلى عقب في مجلسه، قال له: يا أبا جعفر إن فلان الشامي قد هلك وهو يسألك أن تصلي عليه.

فقال أبو جعفر عليه السلام: كلا إن بلاد الشام بلاد صرد، والحجاز بلاد حر لهبها شديد، انطلق فلا تعجلنّ على صاحبك حتى آتيكم، ثم قام عليه السلام من مجلسه فأخذ وضوءاً ثم عاد فصلى ركعتين ثم مد يده تلقاء وجهه ما شاء الله ثم خر ساجداً حتّى طلعت الشمس ثم نهض فانتهى إلى منزل الشامي، فدخل عليه فدعاه فأجابه ثم أجلسه وأسنده ودعا له بسويق فسقاه وقال لأهله: املؤوا جوفه وبرّدوا صدره بالطعام البارد.

ثم انصرف عليه السلام، فلم يلبث إلاّ قليلاً حتى عوفي الشامي فأتى أبا جعفر عليه السلام فقال: اخلني فأخلاه، فقال: أشهد أنك حجة الله على خلقه وبابه الذي يؤتى منه فمن أتى من غيرك خاب وخسر وضل ضلالاً بعيداً.

قال له أبو جعفر عليه السلام: وما بدا لك؟

قال: أشهد أني عهدت بروحي وعاينت بعيني فلم يتفاجأني إلا ومناد ينادي، أسمعه بأذني ينادي وما أنا بالنائم ردّوا عليه روحه فقد سألنا ذلك محمد بن علي.

فقال له أبو جعفر عليه السلام: أَما عَلِمتَ أَنّ اللهَ يُحبُّ العَبدَ ويُبغِضُ عَمَلَهُ ويُبغض العبد ويحبّ علمه؟

قال الراوي: فصار بعد ذلك من أصحاب أبي جعفر عليه السلام»[1].

٤- وفي توحيد المفضل: «إنه لما سمع المفضل من ابن أبي العوجاء، بعض كفرياته، لم يملك غضبه، فقال: يا عدو الله ألحدت في دين الله، وأنكرت البارئ جل قدسه، إلى آخر ما قال له.

فقال ابن أبي العوجاء: يا هذا إن كنت من أهل الكلام كلمناك، فإن ثبت لك الحجة تبعناك، وإن لم تكن منهم فلا كلام لك، وإن كنت من أصحاب جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فما هكذا يخاطبنا، ولا بمثل دليلك يجادلنا، ولقد سمع من كلامنا أكثر مما سمعت فما أفحش في خطابنا ولا تعدى في جوابنا، وإنه الحليم الرزين، العاقل الرصين، لا يعتريه خرق، ولا طيش ولا

(١) البحار ج٤٦ص٢٣٣

نزق، يسمع كلامنا، ويصغي إلينا، ويستعرف حجتنا حتى إذا استفرغنا ما عندنا، وظننا إنا قد قطعناه، دحض حجتنا بكلام يسير، وخطاب قصير، يلزمنا به الحجة، ويقطع العذر، ولا نستطيع لجوابه ردا، فإن كنت من أصحابه فخاطبنا بمثل خطابه»[1].

وما تقدم مما ذكرنا هو غيض من فيض، وقد تركنا التطويل في إثبات هذه الصفة التي اعترف بها ا لجميع المسلم والكافر والموالف والمخالف.

المقوم الثالث: كثرة الصدقة

في القرآن آيات عديدة تنبه المسلمين بل والناس جميعا إلى أمر هام، وهو أن ما في أيديهم من مال هو مال الله الذي رزقهم إياه وجعلهم مستخلفين فيه، ليكون في ذلك تلقين جليل هو أنهم وكلاء على هذا المال، وأن صاحبه الأصلي هو الله وهو الذي يأمرهم بالإنفاق منه، فليس لهم من جهة مِنّة على أحد فيما ينفقون، وليس لهم من جهة أخرى حق في الامتناع عن الإنفاق، من ذلك آية في سورة الحديد تقول: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ

(١) الأنوار البهية ص ١٥٨ - ١٥٩

وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ، وآية من سورة النور تقول: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ ، وآية من سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ﴾ .

ثم أن القرآن احتوى إلى جانب هذه الآيات آيات كثيرة تغني كثرتها عن التكلم في آثار الصدقات ونتائجها الدنيوية والأخروية، لكن نقول بوجه عام أن القرآن العظيم حث على التصدق على الفقراء والمساكين وا لمحتاجين والإنفاق في سبيل الله بأسلوب يلهم المقصود من الصدقات وروعة حكمة الله بهذه الفئات والمقصد من ذلك هو ضمان صلاح ا لمجتمع الإسلامي وأمنه وتضامنه وتكافله وتخفيف أزمة أبنائه وا لمحتاجين فيه، ثم إن الصدقة توجب تقليل أسباب الأحقاد والضغائن والحسد بين المسلمين، قال الشيخ البلاغي في تفسير قوله تعالى ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [1] **قد اقتضت حكمة الله ورحمته في شأن الإنسان ونظام مدنيته وتشابكه في الاجتماع أن يجعل بعضهم**

(١) البقرة ٢٤٥

محتاجا إلى بعض في شؤون التعيّش والأموال، كما اقتضت حكمته ورحمته في كمال الإنسان ونيله كرامة الفضيلة وحسن ا لجزاء بأن يجعله مختارا في أفعاله وأحواله في الإيمان والكفر والطاعة والمعصية، واقتضت حكمته ورحمته ولطفه أن يأمر بالتعاون على البر والإحسان، وأن يعود الغني على الفقير بشيء مما هو من رزق الله وخلقه وينفق شيئا من مال الله في نصر الحق وأهله ودفاع الباطل وأهله، واقتضت رحمته ولطفه أن يرغّب الإنسان في الإنفاق في سبيل الله والخير في الفقراء وا لجهاد وينصره بهذا الترغيب على شح نفسه ونزعات حرصه وما يسوله له فقر إمكانه.

فجاء القرآن الكريم على أحسن وجه في الترغيب وحاصل ما يشير اليه وينوه به هو انكم ايها الناس لا بدلكم من انكم تعرفون أن كل نعمة عندكم إنما هي من الله وخلقه للعالم وما فيه. ومع ذلك فإن الله بحسب حكمته ولطفه يندبكم إلى أن تنفقوا شيئا مما أنعم به عليكم في طريق صلاحكم وسعادتكم وان الذي ينفق في ذلك شيئا من ماله وهو يريد به وجه الله يجعله الله قرضا عليه إذا كان قرضا وإنفاقا حسنا من المال الحلال فاقدا لما يشينه من الرياء والمن ونحو ذلك فَيُضاعِفَهُ لَهُ بنصب «يضاعفه» جوابا للاستفهام بعد الفاء وفي الحقيقة

هو جواب لطلب القرض المؤكد بأسلوب قوله تعالى ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثِيرَةً﴾[1].

ثم روى عن الصدوق في معاني الأخبار في الصحيح عن الخزاز والعياشي عن علي بن عمار عن الصادق عليه السلام لما نزلت «من جاء بالحسنة فله خير منها» قال رسول الله: اللهم زدني، فأنزل الله «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها» فقال رب زدني، فأنزل الله ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثِيرَةً﴾ فعلم رسول الله صلى الله عليه وآله أن الكثير منه لا يحصى وليس له منتهى.

وفي قوله تعالى ﴿واللهُ يَقْبِضُ ويَبْسُطُ﴾، جاء في تفسير البرهان عن الصدوق مسندا عن الإمام الصادق عليه السلام: يمنع ويعطي، والمراد استلفاتهم إلى أن أمر الرزق بيد الله جل شأنه، فليغتنم ذو السعة فرصة الإنفاق وقرض الله قبل أن يضيق عليه رزقه وتبقى له الحسرة، ولا يخف في إنفاقه فقراً، فإن بيده بسط الرزق وإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ فيوفيكم جزاء ما أنفقتم وتشتد حسرات الحريص الشحيح على ما فرط»[2].

(١) آلاء الرحمن في تفسير القرآن ج١ ص ٢١٩

(٢) آلاء الرحمن في تفسير القرآن ج١ ص ٢١٩

آثار الصدقة

لا بأس في ذكر بعض ما جاء في الروايات والأحاديث الشريفة عن آثار الصدقة وفضلها:

١. عن معاوية بن عمار قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «كان في وصية رسول الله صلى الله عليه وآله لأمير المؤمنين عليه السلام: أوصيك في نفسك بخصال احفظها عني ثم قال: اللهم. أعنه - إلى أن قال - وأما الصدقة فجهدك جهدك حتى تقول قد أسرفت ولم تسرف»[1].

٢. قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «استقرَضَكم وله خزائن السموات والأرض وهو الغني الحميد وإنّما أراد أن يبلوكم أيّكم أحسن عملا»[2].

٣. -عن سالم بن أبي حفصة، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «إن الله يقول: ما من شيء إلا وقد وكلت به من يقبضه غيري إلا الصدقة فإني أتلقفها بيدي تلقفا حتى أن الرجل يتصدق بالتمرة أو بشق تمرة فأربيها له كما يربي الرجل فلوه وفصيله فيأتي يوم القيامة وهو مثل أحد وأعظم من أحد»[3].

(١) وسائل الشيعة ج ٦ ص ٢٦٣

(٢) نهج البلاغة الخطبة ١٨٣

(٣) وسائل الشيعة ج ٩ ص ٣٨٢

٤. قال الإمام علي بن الحسين عليه السلام في دعاء وداع شهر رمضان: «وقلتَ من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له فذكروك وشكروك ودعوك وتصدقوا لك طلبا لمزيدك، وفيها كانت نجاتهم من غضبك وفوزهم برضاك»[1].

٥. قال الإمام الباقر عليه السلام: «البر والصدقة ينفيان الفقر ويزيدان في العمر ويدفعان عن سبعين ميتة سوء»[2].

٦. عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: «لإن أحج حجة أحبّ إليّ من أن أعتق رقبة حتى أنتهي إلى عشرة ومثلها ومثلها حتى أنتهي إلى سبعين، ولإن أعول أهل بيت من المسلمين وأشبع جوعتهم وأكسو عورتهم وأكف وجوههم عن الناس أحبّ إليّ من أن أحج حجة وحجة وحجة حتى أنتهي إلى عشرة ومثلها ومثلها حتى أنتهي إلى سبعين»[3].

٧. عن عبد الله بن سنان قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «داووا مرضاكم بالصدقة، وادفعوا البلاء بالدعاء، واستنزلوا الرزق بالصدقة، فإنها تفك من بين لحى سبعمائة

(١) الصحيفة السجادية ص١٩٢

(٢) البحار ج٧١ص٨١

(٣) ثواب الأعمال ص ١٤١

شيطان وليس شيء أثقل على الشيطان من الصدقة على المؤمن، وهي تقع في يد الرب تبارك وتعالى قبل أن تقع في يد العبد»[1].

هذه هي مقومات وموجبات رضوان الله تعالى، فالاستغفار كما ذكره أمير المؤمنين عليه السلام هو درجة العليين ولا يعطى إلا لمن يحبه الله ومن كان في درجة العليين ومحبوباً عند الله فقد نجا، وأما خفض الجانب فلو لم يكن فيه أي ثواب إلا أن يتصف الإنسان المسلم بصفة من صفات النبي صلى الله عليه وآله لكفاه فضلاً، فقد أنزل ربنا تبارك وتعالى في كتابه الكريم ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[2] وأما التصدق في سبيل الله فيكفيه فضلاً أن آخذ الصدقة من المتصدق الله جل وعلا وهو الذي يربيها ولهذا فمن كان حاله بين هذه الموجبات فإنه يكون في رضوان الله كما بشر بها إمامنا الجواد عليه السلام.

(١) الكافي ج ٤ - ص ٣

(٢) الأحزاب الآية ٢١

الفهرس

المقدمـة..... ٣

الحديث الأول: التوحيد المحض..... ٥

الحديـث الثاني: منزلة النبي صلى الله عليه وآله..... ٢٣

الحديث الثالث: الإيمان الكامل..... ٤٠

مراتب الإيمان..... ٤٩

عودة إلى كلام الإمام عليه السلام..... ٥٣

الحديث الرابع: حـد السـلامة..... ٥٧

شبهة «التعجل أمر ذاتي»..... ٦٤

المشـورة..... ٧٣

من نستشير؟..... ٧٧

التوكل عند العزم على الله عزوجل..... ٧٩

الحديث الخامس: سبيل الرضوان..... ٨٢

المقوم الأول: كثرة الأستغفار..... ٨٥

المقوم الثاني: خفض الجانب..... ٨٨

نماذج من مواقفهـم..... ٩٠

المقوم الثالث: كثرة الصدقة..... ٩٥

آثار الصدقـة..... ٩٩